

مختصر الكلام
في

العارك الفاصلة للأمة الباسلة

أ. أحمد زايد

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع



رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادي

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى

الكتاب : المعارك الفاصلة للأمة الباسلة

المؤلف : أ. أحمد زايد

تصنيف الكتاب : تاريخ

تصميم وإخراج : أحمد عبد الحليم

المقاس ٢٠ × ١٤

رقم الإيداع : ٢٠١٨ / ١٦٠٠٥

الترقيم الدولي : 6 - 715 - 776 - 977 - 978

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى أبناء هذه الأمة الباسلة الذين سَطَّروا بدمائهم أروع
البطولات على مر التاريخ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد الصادق الأمين، وعلى أصحابه الغر الميامين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد .

إليك دراستي الثانية في سلسلة مختصر الكلام في التاريخ، وبعد تحقيق الدراسة الأولى والتي كانت بعنوان (مختصر الكلام فيما مر على مصر من عصور وحكام) نجاحا أحسبه بالنجاح الممتاز إن شاء الله، وجدت نفسي أكثر حماسة لطرح هذه الدراسة الثانية، ومن خلال نفس المؤسسة، مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع، لما لمستهم فيهم من حسن إدارة وتمييزهم الغث من الثمين وعدم تطلعهم إلى تحقيق ربحا ماديا، ولكنهم يعملون بكل طاقة ممكنة لإخراج عمل يستفيد منه القارئ .

ولم تتغير أهدافه من هذا العمل عن سابقه، وإنما تغيرت الموضوعات المتناولة بين طياته، ففي الوقت الذي قل فيه الساعين لامتلاك مجلد كبير ذو مصطلحات تاريخية محترفة، وفي زمن قل فيه المتحمسين لمعرفة تاريخ المعارك التي خاضتها الأمة المصرية عبر تاريخها، عقدت النية على أن أقدم لكم هذا العمل الذي يتناول مختصر تاريخ المعارك الحربية المصرية عبر العصور المختلفة، وأضعه بين أيادي الجميع لعلّي أؤجر منه عند ربي سبحانه وتعالى.

وقد راعيت في هذا المؤلف ما يأتي :

أولاً : ألا أستخدم قدر المستطاع المصطلحات اللغوية الصعبة، وأن أستخدم لغة بسيطة سهلة على الجميع، فهدفي ليس استعراض لغتي، ولكن أن تستفيد كل المستويات الثقافية من كتاباتي.

ثانياً : أن أجمع تاريخ أهم المعارك التي خاضتها مصر عبر التاريخ، مراعيًا التسلسل الزمني لها، بشكل يسهل على القارئ ما يريده من معلومات وإجراء المقارنات بين المعارك المختلفة.

ثالثاً : تقسيم تاريخ هذه المعارك في هذا الكتاب إلى ثلاثة أبواب، يتناول كل باب منها المعارك التي وقعت في عصر محدد.

رابعاً : استخدمت في هذا العمل المصادر والمراجع المشهورة والمعروفة والموثوق بها، أو شهادات بعض المعاصرين بالنسبة للمعارك التي حدثت في العصر الحديث والمعاصر، لأنني أوّمن في مجال البحث التاريخي كما قلت سابقاً بهذه السطور :

«إن المؤرِّخ محتاج إلى مأخذ متعددة، ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت، يفيضان بصاحبهما إلى الحق، وينتريان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا أعتمد فيها على مجرد النقل، ولم يحكم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران، والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا يقيس الغائب فيها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلة القدم، والحيدة عن جادة الصدق» (١).

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وألا يجعل حظنا من ديننا قولنا، وأن يحسن نياتنا وأعمالنا، إنه ولي ذلك ومولاه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه

أحمد بن محمد بن عبد الفتاح زايد

القاهرة - جمهورية مصر العربية

١٤٣٩ هجرية - ٢٠١٨ ميلادية

تمهيد

تضم هذه الدراسة ثلاثة أبواب، أتناول من خلالها مختصر تاريخ أهم المعارك التي خاضتها الأمة المصرية عبر التاريخ، وقبل أن أوضح محتوى الثلاثة أبواب يجب على القارئ أن يعرف أربع نقاط :

أولاً: إن جُل المؤرخين قد أجمعوا على تقسيم العصور التاريخية إلى ثلاثة أقسام رئيسة وهي :

١. العصر القديم والذي بدأ منذ معرفة الإنسان الكتابة في الألف الرابعة قبل الميلاد وانتهى مع سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في يد البرابرة عام ٤٧٦ من الميلاد.

٢. العصور الوسطى والتي بدأت منذ العام ٤٧٦م وانتهت مع الفتح العثماني للقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) عام ١٤٥٣م

٣. العصر الحديث والمعاصر والذي بدأ منذ العام ١٤٥٣م ويستمر حتى الآن إذا دمجنا العصر الحديث مع العصر المعاصر في عصر واحد.

ثانيا : إن وجود الجيش المصري كان مرتبطا بوجود الحكومة المركزية الأولى التي أسسها الملك مينا عام ٣٢٠٠ق.م.، إلا أن بواكير الجيش النظامي في مصر كان مع الأسرة السادسة الفرعونية وتحديدا في عصر الملك بيبي الأول.

ثالثا : أول جيش نظامي في مصر بالمعنى الشامل لكلمة نظامي، كان في عصر الدولة الحديثة الفرعونية وتحديدا مع بدايات الأسرة الثامنة عشر.

رابعا : تاريخ مصر الطويل الممتد منذ عصر قدماء المصريين إلى يومنا هذا، قد مرت فيه مصر بفترات تبعية إلى إمبراطوريات ودول سيطرت على مناطق عدة من العالم، وعلى هذا فقد خاضت مصر معارك عظيمة ضمن هذه الامبراطوريات والدول، سنعرضها على القارئ بإذن الله .

أما عما تتضمنه الأبواب الثلاثة للكتاب فإنها كالتالي :

الباب الأول : يتناول المعارك الفاصلة التي خاضتها مصر في العصور القديمة والتي تمثلت في العصور (الفرعوني، ثم اليوناني، ثم الروماني)

الباب الثاني : يتناول المعارك الفاصلة التي خاضتها مصر في العصور الوسطى متمثلة في العصر الإسلامي بدوله المتعددة منذ الفتح الإسلامي في عصر الخلافة الراشدة مروراً بالدولتين الأموية والعباسية متضمنة المعارك التي حدثت في فترات حكم الدول المستقلة في العصر العباسي مثل عين جالوت وحنطين .

الباب الثالث : يتناول المعارك الفاصلة التي خاضتها الأمة المصرية في العصر الحديث والمعاصر منذ أصبحت مصر ولاية عثمانية مروراً بعصر محمد علي وخلفائه حتى نصل إلى المعارك والحروب ضد الاحتلال الإسرائيلي في الفترة المعاصرة .

والله المستعان

المعارك الفاصلة في العصور القديمة

حرب التحرير ١٥٧١ ق.م. :

حرب التحرير هو مفهوم اصطلح إطلاقه على الحرب التي خاضها أمراء إقليم طيبة (الأقصر الحالية) ضد الغزاة الهكسوس الذين استطاعوا احتلال مصر السفلى ومصر الوسطى حوالي عام ١٧٣٠ ق. م.

والهكسوس هم قبائل رعوية كانت تسكن في آسيا، ويبدو أنهم كانوا دائمي التنقل والترحال بحكم عملهم في الرعي، ولكن بعد أن توحدوا تطلعوا إلى غزو مصر والاستقرار بها لما تحويه مصر من ثروات وخيرات .

ولا تدل كلمة هكسوس على جنسية هؤلاء الغزاة والذين غزو مصر في أواخر عهد الأسرة الثالثة عشر الفرعونية، وإنما هي صفة لحكامهم الذين أطلق عليهم المصريين اسم حقاو خاسوت بمعنى حكام البراري وحورها اليونان إلى هكسوس،

وترجمها مانيتون المؤرخ المصري القديم إلى ملوك الرعاة .

وقد عبر المصريون عن الهكسوس بمترادفات أخرى مثل العامو تلك الكلمة التي تعني البدو، ولازال أصل الهكسوس مشكلة حيرت الباحثين، ولكن أقرب الآراء للصحة هو أن للهكسوس صلة بشعوب وسط آسيا، التي خرجت منذ الألف الثاني قبل الميلاد من جراء ظروف طبيعية وبشرية، وتدفقت على الأناضول وأراضي الهلال الخصيب، واختلفت أشكال ونتائج هجرتهم من مكان لآخر واختلفت المسميات التي أطلقت عليهم وفقا للبلاد التي نزلوها، وإن كان المصطلح العام الذي أطلق على هؤلاء هو الأريين أو الهندوأوربيين، فإنهم عُرفوا في العراق باسم الكاسيين وفي آسيا الصغرى باسم الخاتسيين وفي أعلى العراق باسم الحوريين .^(٢)

على أي حال، لم تدن مصر كلها بالخضوع للهكسوس، وبقيت بعض المناطق في غرب الدلتا بالإضافة إلى مصر العليا (جنوب مصر) تحت حكم أمراء مصريين، ولكن لم يمتلك أي من الأمراء المصريين في ذلك الوقت القدرة على مقاومة الهكسوس والخلاص منهم، فالهكسوس أكثر عددا، ويتفوقون عسكريا على المصريين .

لم يندمج الهكسوس مع المصريين، رغم أن الشعب المصري عُرف عنه استقباله للهجرات المتكررة واندماجه مع الأعراق المختلفة، لكن الحاجز الذي كان بينهم وبين الهكسوس كان كبيرا

٢ - (د. عودة عبد الواحد - مقتطفات من تاريخ الشرق الأدنى القديم - ص ٤٨)

يمنع حدوث هذا الاندماج، رغم أن ملوك الهكسوس طوال فترة استعمارهم لمصر والتي تجاوزت المائة عام حاولوا مرارا وتكرارا الاندماج في المصريين وتلقبوا بألقابهم واتبعوا بعض عاداتهم، إلا أنهم فرضوا الضرائب الباهظة على المصريين واعتمدوا على القوة في حكمهم من خلال توزيع القلاع والفرق العسكرية على كل البر الذي يسيطرون عليه، إلا أن المانع الحقيقي الذي منع المصريين من قبول اندماج الهكسوس بينهم كان عدم احترام الهكسوس للمقدسات المصرية وتخريبهم لمعابد الآلهة المختلفة وتدميرهم لمعالم حضارة مصر القديمة التي سبقتهم .

على أي حال لم يكن للهكسوس مملكة واحدة موحدة في مصر بعد الغزو، حيث اعتاد الهكسوس على الإمارات المنفصلة، حتى استطاع أحد أقوى أمرائهم توحيدهم تحت سلطته وتكوين دولة موحدة، وذكر مانيتون أن اسم هذا الأمير كان (سالتيس)، والذي ما أن فرغ من توحيدهم إلا وشرع في بناء عاصمة جديدة لهم في مصر شرقي الدلتا عُرفت باسم أفاريس أو أواريس وهي تقع في حدود محافظة الشرقية الحالية، وعمل الهكسوس على تحصين عاصمتهم الجديدة تحصينا قويا وزودوها بالحاميات العسكرية اتقاء لثورات المصريين ضدهم .

وفي الوقت الذي وصل فيه شعور السيطرة التامة للملوك الطغاة الهكسوس في مصر، كان أبناء طيبة في صعيدها يستعدون لحرب

التحرير واستعادة مصر المسلوبة وردها إلى أبنائها، وقد حمل لواء الكفاح ضد الهكسوس ملك طيبة سقنرع وولده كامس ثم أحمس على الترتيب .

يبدو أن ملك الهكسوس أحس باستعداد سقنرع للحرب، فحاول جره إلى الحرب قبل أن يكمل استعداداته، فادعى أن أصوات أفراس النهر المقدسة عند المصريين في البحيرة الشرقية تفرعه في مدينته، وكان ذلك سببا لنشوب المعركة، تلك المعركة التي دخلها سقنرع دون استعداد كاف، ونجح الهكسوس في استدراجه إليها، ولم يصلنا الكثير عن تفاصيلها، ولكن أوضح وأجل مصدر يثبت هزيمة المصريين وقتل ملكهم سقنرع في هذه المعركة هو المومياء الخاصة بالملك سقنرع نفسه والموجودة بالمتحف المصري في ميدان التحرير بالقاهرة والتي نرى فيها بوضوح شديد رأس الملك سقنرع المكلة بخمسة جروح عميقة قاتلة .

بعد مقتل سقنرع تولى ابنه كامس أمور الحكم في طيبة، ومنذ توليه الحكم أخذ يستعد لاستكمال كفاح أبيه لتحرير مصر من الهكسوس، قائلاً عبارته الشهيرة « لسوف أقاتل العدو وأبقر بطنه، وأن غاييتي أن أحرر مصر واستبيح دماء العامو » .

بالفعل استطاع كامس تطهير مصر الوسطى من الهكسوس، وحقق عدة انتصارات عليهم، لكنه تُوِيَّ في ظروف غامضة قبل المعركة الفاصلة بينه وبين الهكسوس .

بوفاة كامس آلت أمور الحكم في طيبة إلى أخيه الأصغر
أحمس، والذي استكمل كفاح أخيه ومن قبله أبيه ضد الهكسوس،
ونجح في إعداد جيشه إعدادا فاق ما قام به أسلافه، وجهاز جيشه
بالعجلات الحربية والتي كانت تعطي للهكسوس تفوقا ميدانيا في
كثير من المعارك .

استطاع أحمس الأول هزيمة الهكسوس ودخل عاصمتهم عنوة
وأسر حاميتهم العسكرية بها، ويبدو أن الهكسوس قد أجبروا على
الجلاء بشروط الملك أحمس، ولكنهم توقفوا عند حصن لهم في
فلسطين يعرف باسم شاروهين أو شاروحين، فحاصره أحمس به
ما يقرب من ثلاث سنوات حتى جلوا عنه وعادوا من حيث أتوا .

بهذا الانتصار استطاع الملك أحمس تخليص مصر من
الهكسوس تماما، وعودة السيادة على كل أرض مصر إلى أبنائها،
وبدأت مرحلة جديدة من تاريخ مصر عُرفت باسم عصر المجد
الحربي .

إلا أنني أرى أن أهم ما استفاده المصريون من محنة الهكسوس
هو أن الاعتقاد بأن أمن مصر هو داخلها فقط هو اعتقاد غير
صائب، فلمصر مجالا حيويا لها من جميع الجهات يجب أن يكن
مؤمننا تأمينا حقيقيا لضمان أمن مصر الداخلي، وهذا ما أقره
ملوك عصر المجد الحربي في مصر القديمة من خلال معاركهم
والتي سنتناولها بتفصيل بسيط .

معركة مجدو ١٤٧٩ ق.م. :

أصبح جليا بعد محنة الهكسوس أن أمن مصر مرتبط بوجود جيش قوي مدرب ومسلح بأحدث الوسائل، وقبل ذلك أن يكون جيشا محترفا لا جيش هاو يجتمع فقط عند الحاجة، كما اتضح أهمية المجال الحيوي لمصر خاصة في الناحية الشمالية الشرقية ورغم أنها تُعتبر أقصر حدود برية لمصر إلا أن أكثر موجات الغزو قد جاءت إلى مصر من تلك الناحية .

فَطَنَ ملوك الأسرة الثامنة عشر الفرعونية إلى هذه النقاط، فعملوا على تداركها، وكان الملك تحتمس الثالث أعظم من عمِلَ على ذلك .

على التوازي كان هناك تحالفا في الشام بزعامة أمير قادش يعمل على تهديد الأمن القومي لمصر ووصل نفوذه حتى مدينة مجدو في شمال فلسطين، وسيطر على شاروهين معقل الهكسوس القديم الذي طردهم منه الملك أحمس الأول .

قرر الملك تحتمس الثالث مشاورة قاداته في هذا الأمر، واستقروا جميعا على المبادرة بالهجوم ومفاجأة العدو، ويبدو أن الجيش المصري في هذا الوقت كان عدده يقترب من العشرة آلاف جندي .

زحف الملك تحتمس الثالث شمالاً حتى وصل إلى بلدة تُدعى
يحم، حيث ثلاثة طرق كلها تؤدي إلى مجدو، الأول (تاعاناقا)
والثاني (جفتي) وهما ممهدان إلا أنهما طويلان، والثالث (عاورنا)
وهو ضيق وعمر، ولكنه قصير ويؤدي مباشرة إلى مجدو، وبعد أن شاور
تحتمس قواده اختار على مسئوليته اجتياز الطريق الضيق وكان
على رأس جنده، وبالفعل باغت جند الحلف عند مجدو، ودار قتال
انتصر فيه الجيش المصري وحاصر مجدو سبعة أشهر استسلمت
بعدها فعزى الفرعون عن أهلها وعن أمراء الشام، وحمل بعض
أبناء الأمراء إلى مصر لتربيتهم فيها كرهائن .^(٣)

وهنا يبدو للدارس والباحث كم أن الملك تحتمس الثالث
يُعتبر أحد أعظم الملوك في مصر خاصة في مجالي الحرب والإدارة،
فاستعداده لمجدو، ومباغتته للعدو بعد أن استطاع أن يستنتج
أهدافهم من الحلف، واختياره للطرق الوعرة الغير متوقعة للعدو
تدل على عقليته العسكرية الفريدة .

كما أن جلبيه لأبناء الأمراء الآسيويين إلى مصر، والعمل على
تربيتهم تربية سليمة حتى يشبوا على الولاء والطاعة له وللدولة
المصرية، ثم إعادتهم إلى بلادهم وتوليتهم المناصب المهمة والمؤثرة
بها حتى يضمن ولاء هذه الأقاليم له، لأكبر دليل على عقليته
الإدارية العظيمة .

٢ - (د. عودة عبد الواحد - المرجع السابق - ص ٥٧)

كما أن الانتصار في مجدو فتح للملك تحتمس الثالث الأبواب لتوطيد حكمه في هذه المناطق مما ساعد على تأمين الأمن القومي المصري، وحماية الجهة الشمالية الشرقية والتي تمثل أهم بوابة استراتيجية لمصر، وساعده ذلك أيضا في توطيد وتثبيت حكمه لأول إمبراطورية ظهرت في التاريخ .

معركة قادش ١٢٧٤ ق.م. :

بعد وفاة الملك تحتمس الثالث، تعاقب على الحكم عدة ملوك حتى وصل الحكم إلى الملك أمنحتب الرابع المُلقب إخناتون، والذي لم يكن يهتم بأمور السياسة وصبَّ جُلَّ اهتمامه إلى دعوته الدينية الآتونية في ذلك الوقت، وبالطبع كان ذلك سببا كافيا لحدوث حالة من عدم الاستقرار الداخلي صاحبها ضعف في النفوذ المصري على منطقة الشام والذي كان قد وطده الملك تحتمس الثالث من خلال معركة مجدو وغيرها، وانتهى الأمر إلى انهيار الإمبراطورية المصرية في ذلك الوقت .

بعد مقتل إخناتون، وسقوط الأسرة الثامنة عشر، عمِلَ ملوك الأسرة التاسعة عشر الفرعونية على استعادة هذا النفوذ، وكان من أبرز ما قاموا بها هو معركة قادش التي خاضها الملك رمسيس الثاني ضد الحيثيين .

فقد عاصر رمسيس الثاني ملكا على الحيثيين يدعى موتاللي، ولم يكن يقل طموحا عن رمسيس الثاني، وقد استطاع إقامة دولة قوية وصل نفوذها إلى شمال لبنان، واتخذ من مدينة قادش مركزا عسكريا له ولحلفائه .

خرج رمسيس الثاني إلى الشام في جيش من أربع فيالق (أمون - رع - بتاح - ست) وبالفعل وقع الصدام بينه وبين الحيثيين وحلفائهم عند قادش، ولما لم يكن النصر الحاسم حليف طرف معين، وبعد أن حس كلا منهما قوة الآخر مالوا إلى السلام، وتذكر المصادر المصرية أن الحيثيين هم الذين طلبوا السلام فقبله رمسيس بعد أن استشار رجال دولته، وهكذا أوقف رمسيس تقدم الحيثيين جنوبا، وأعاد السلام إلى أرض الشام .^(٤)

اتفق الطرفان على عدم اعتداء أي منهما على حدود الآخر، وأن تحترم كل دولة كيان الدولة الأخرى، بل اتفقا على أن يقوم كل طرف منهما بنجدة الطرف الآخر بقوة عسكرية إذا وقع عليها اعتداء عسكريا، ويبدو أن هذا النص في الاتفاق كان يُقصد به الخطر الآشوري عليهما والذي بدأ يظهر بوضوح من ناحية بلاد النهرين وتطلعات الآشوريين لتوسيع دولتهم وتكوين إمبراطورية كبيرة تمتد إلى السواحل الشرقية للبحر المتوسط .

٤ - (د. عودة عبد الواحد - المرجع السابق - ص ٦٤)

اتفق الطرفان كذلك على ألا يأوي أي طرف منهما الفارين من بلد الطرف الآخر وأن يعيدهم إليه سالمين هم وزوجاتهم وأبنائهم .

على أي حال، أعادت انتصارات رمسيس الثاني في قادش وما بعدها النفوذ المصري إلى بلاد الشام، واستطاع من خلال المعاهدة التي وقعها مع ملك الحيثيين تأمين الحدود الشمالية الشرقية لمصر من جديد، ومن بعدها تفرغ الملك رمسيس الثاني إلى إقامة نهضة عمرانية كبيرة في مصر تتجلى في العدد الكبير من المسلات والمعابد والتمائيل المختلفة التي عثرنا عليها وتعود إلى عصره

شعوب البحر المتوسط ١٧٨ ق.م. :

تعرضت مصر في عصر الدولة الحديثة الفرعونية إلى خطر جديد، وهو خطر شعوب البحر المتوسط والتي تطلعت إلى غزو مصر واحتلالها، ويبدو أن تعاونهم على ذلك كان غير مدبرا، إلا أنه مثل خطرا كبيرا على مصر في هذه الفترة .

تمثل هذا الخطر في موجات متتالية من الغزو بدأت في عصر الملك مرنبتاح ابن الملك رمسيس الثاني والذي استطاع التصدي لجميعها، إلا أن أعنف موجة لهذه الهجمات كانت في عصر الملك رمسيس الثالث والذي استطاع أن يتصدى لهم ويردهم على أعقابهم .

وقد ارتبط اسم شعوب البحر المتوسط بالجزر المتناثرة به والأراضي الممتدة على سواحلها، فمنهم الشرادنة المرتبطين بجزيرة سردينيا، واللوكانيون بليكنيا في آسيا الصغرى، والأخيواشا ببلاد اليونان، والشكرس بجزيرة صقلية، والبلستي الذين سكنوا مرتفعات سوريا الجنوبية وارتبط اسم فلسطين بها .

أغارت تلك الشعوب على مصر من جديد في عصر الملك رمسيس الثالث، وفي هذه المرة كانت الغارات برية بحرية في نفس الوقت، فقد كانت الهجمات البرية من ناحية الشمال الشرقي والتي وصلت إلى قرب مدينة رفح الحالية واستطاع الملك رمسيس الثالث التصدي لها وهزيمتها واعادتها إلى من حيث أتت .

أما الهجمات البحرية فقد جاءت من الشمال حيث البحر المتوسط، ووصلت إلى القرب من المصب الغربي لنهر النيل، وهنا كانت المواجهة البحرية الأولى الكبيرة في تاريخ الأسطول الحربي المصري والذي أبلى فيها بلاءا حسنا وتمكن من تحقيق الانتصار البحري الكبير الأول في تاريخ البحرية المصرية .

في العام الحادي عشر من عهد رمسيس الثالث عاودت شعوب البحر المتوسط الهجوم بزعامة شيخ يدعى كابور لكن لاقوا هزيمة جديدة، ومنذئذ بدأ هؤلاء يتسللون سلميا إلى مصر وتسامح معهم الحكام واستخدموهم لحماية حصون مصر الغربية .^(٥)

٥- (د. عودة عبد الواحد - المرجع السابق - ص ٦٩)

كانت تلك الانتصارات التي حققها الملك رمسيس الثالث ضد شعوب البحر المتوسط سببا كافيا لنا حتى نعتبره آخر ملوك الفراعنة العظام، كما اعتبره كثير من المؤرخين المؤسس الحقيقي للأسرة العشرين الفرعونية، فيرى كثير من الباحثين أن خطر شعوب البحر المتوسط الذي هدد مصر في عصره لم يكن يقل بأي حال من الأحوال عن خطر الهكسوس الذي تعرضت له مصر في أعقاب انهيار الدولة الوسطى الفرعونية، ولولا التصدي البطولي للملك رمسيس الثالث لهم وانتصاره عليهم لدخلت مصر في فترة جديدة من الاستعمار الذي يستنزف موارد البلاد ويستعبد أهلها .

طرد الآشوريين ٦٢٠ ق.م. :

الآشوريون هم أحد أهم الحضارات التي قامت في بلاد العراق القديم، واستطاعت بسط نفوذها على مناطق كثيرة حولها حتى وصل النفوذ الآشوري إلى شرق حوض البحر المتوسط في بلاد الشام، ولما كانت بلاد الشام هي أهم مجال حيوي لمصر، وتمثل بُعدا استراتيجيا مهما لها، لم يكن بإمكان مصر أن تظل بعيدة عن معترك الأحداث ببلاد الشام .

ما لبث الملك سرجون الثاني الآشوري أن توفى حتى اندلعت الثورة في بلاد الشام ضد الحكم الآشوري، خاصة الممالك العبرانية مثل مملكة يهوذا والتي كانت تلقى دعما كبيرا من المصريين في

ذلك الوقت، حيث هدف المصريون من مساعدة مملكة يهوذا أن تكون درعا واقيا لهم من التوسع الآشوري .

فطن الآشوريين إلى الدعم المصري لتلك الممالك في بلاد الشام فأرادوا القضاء على مصر لتهدأ الأحوال في بلاد الشام، بالإضافة إلى تطلع الآشوريين للاستيلاء على مصر وتعدد محاولاتهم لتحقيق أهدافهم الاقتصادية والعسكرية، فاستجمع الملك الآشوري (آشور حادون) قوته كاملة وشرع في مهاجمة مصر منذ عام ٦٧٤ ق.م. وبالفعل وصل إلى رفح، وشق طريقه إلى منف وما إن وصل إليها حتى دمرها تماما، وسيطر على كامل أقاليم الدلتا، ثم قام بتوزيع الحكم على حكام محليين وجعلهم عمالا وولاة له .

تعددت ثورات المصريين ضد الحكم الآشوري، والذي عُرف عنه استخدامه للقوة وسوء معاملة البلاد التي كانوا يسيطرون عليها، وفي كل مرة كان الآشوريون يرسلون جيوشهم لإخماد الثورات في مصر وإخضاع أهلها .

من أهم الثورات التي قام بها المصريون ضد الحكم الآشوري تلك الثورة التي قادها وريث عرش الأسرة الخامسة والعشرين الفرعونية ويدعى تانوت آمون الذي صعد حتى منف واستولى عليها وأدب الأمراء الذين خضعوا لآشور .^(٦)

٦ - (د. عودة عبد الواحد - المرجع السابق - ص ٧٩)

لم يعد أمام آشور بانبيال الحاكم الآشوري حينئذ سوى العودة إلى مصر حاقدا على تانوت آمون وثورته، واستطاع الآشوريون ملاحقة تانوت آمون حتى دخلت القوات الآشورية طيبة، ورغم مقاومة أهلها إلا أنهم دمروها بشكل كامل ونهبوا كنوزها ونقلوها إلى آشور، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يقتحم جيش أجنبي طيبة ويدمرها .

مرت السنوات وما لبث أن ظهر أحد الأمراء المصريين وهو بسماتيك الأول، والذي كان أميرا على مدينة سايس وقد عمل على استغلال الظروف للاستقلال وطرد الآشوريين من مصر وقد خدمته الظروف خدمات جليلة، حيث دخلت آشور في صراع طويل مع عيلام وبابل بالإضافة إلى ثورات بلاد الشام، بل واشتبك الآشوريين كذلك مع ليديا في آسيا الصغرى .

استغل بسماتيك الأول ما وقعت فيه آشور، وقام بتقوية علاقاته بحلفائه داخل مصر، كما استعان بجنود مرتزقة من اليونان، بل وتحالف مع جيغس ملك ليديا على أن يساعد أحدهما الآخر وقت الضرورة .

بالفعل استطاع بسماتيك الأول طرد الآشوريين من مصر بل واستولى على مدينة أشدود في فلسطين لتكون خط الدفاع الأول عن دولته، وأعاد الوحدة والأمان إلى البلاد من جديد، لذا اعتبره المؤرخون هو مؤسس الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية، كما اعتبر عصره هو عصر النهضة في الأسرات الفرعونية العشرة الأخيرة .

معركة رفح ٢١٧ ق.م. :

انتهى العصر الفرعوني بعد الغزو الفارسي لمصر عام ٥٢٥ ق.م، وظلت مصر تحت حكم الفرس دون مقاومة عسكرية تذكر اللهم إلا بعض الثورات من الشعب المصري، حتى استطاع الإسكندر الأكبر المقدوني غزو مصر وإخراج الفرس منها، وقد عاون المصريون الإسكندر في حروبه ضد الفرس لإجلاتهم عن مصر لعدة أسباب أهمها رغبتهم في الخلاص من الحكم الفارسي الغاصب بالإضافة إلى قوة العلاقات بين المصريين واليونان، حيث رأى المصريون أن يكونوا تحت الحكم اليوناني ممثلاً في إمبراطورية الإسكندر أفضل لهم من الاستمرار تحت الحكم الفارسي .

بعد أن أتم الإسكندر استيلائه على مصر، خرج لاستكمال غزواته للاستيلاء على العالم القديم، إلى أنه تُوِّفَّ في ظروف غامضة ببلاد الهند، ولم يكن للإسكندر وريثاً لإمبراطوريته، فعقد كبار قادة جيشه مؤتمراً في بابل العراقية واتفقوا فيما بينهم على تقسيم إمبراطورية الإسكندر بينهم .

بالفعل عهد إلى بطلميوس بمصر، وإلى لاوميديون بسوريا، وإلى لوسيماخوس بتراقيا، وإلى بايثون بميديا الكبرى، وإلى أرخون ببابل، وإلى أنتيجونوس بالجزء الأكبر من آسيا الصغرى، وإلى

يومينيس بكدادوكيا وبافلاجونيا، وبلاد اليونان إلى أنتيباتروس،
وبأقاليم أخرى إلى قواد آخرين .^(٧)

ما لبث كل قائد أن استلم إدارة ولايته، حتى بدأت المشكلات
بينهم، إذ تطلع كل منهم إلى الاستيلاء على ولاية الآخر، فدارت بينهم
المعارك، وعقدت بينهم التحالفات، وكان من أهمها الحروب السورية
والتي كان البطالمة في مصر والسلوقيين في سوريا هما طرفيها .

رغم أن بطلميوس الأول كان سببا في مساعدة سلوقس في
السيطرة على سوريا، إلا أن هذا لم يشفع لوقف الحروب التي دارت
بين البطالمة والسلوقيين على الأقل في زمن خلفائهما، وتعددت
الحروب والمعارك بين الطرفين، إلا أن أشهرها على الإطلاق كان
معركة رفح .

وأرى أن الأهمية التاريخية لمعركة رفح هي أنها المعركة الأولى
في تاريخ مصر البطلمية والذي استمر قرابة الثلاثة قرون، التي
يعتمد فيها على جنود مصريين والذين أبلوا فيها بلاءا حسنا
منقطع النظير .

كان طرفي المعركة هما بطلميوس الرابع الملك البطلمي،
ضد أنطيوخوس القادم من الناحية الشمالية الشرقية، وبالفعل
التقى الجيشان عند رفح، ويبدو أن جيش أنطيوخوس كان أكبر
من الجيش البطلمي، وكان يضم الأفيال

٧ - (د. عودة عبد الواحد - تاريخ مصر في العصر البطلمي - ص ١٣)

فكان النصر في البداية من نصيب أنطيوخوس، الذي ظل يطارد فرسان البطالمة منتشيا بنصره، إلا أن الأمور اختلفت فجأة عندما رأى أمامه عشرون ألفا من الجنود المشاة المصريين الذين وثبوا على السلوقيين وألحقوا بهم هزيمة ساحقة .

كانت هذه هي المرة الأولى في تاريخ العصر اليوناني في مصر الذي يسمح فيها للمصريين بنيل شرف الدفاع عن وطنهم، ورغم أن النصر قد نُسب إلى ملكهم البطلمي، والذي غنم غنائم كثيرة من هذه المعركة، فلا ريب أنه كان نصرا مؤزرا للمصريين جعلهم يتطلعون إلى المشاركة في حكم بلادهم .

أكتيوم البحرية ٣١ ق.م . :

آلت أمور الحكم في أواخر العصر البطلمي إلى الملكة كليوباترا السابعة والتي لم تكن تتدخر أي جهد للوصول إلى هذا المنصب، حتى أنها اشتركت في التخلص من أخيها، وتطلعت إلى أن تكون ملكة على روما سيدة العالم في حينها، فعملت على بذل كل ما تملك لتنال رضا يوليوس قيصر حاكم الرومان .

قتل قيصر في روما، وتوالت الأحداث حتى انقسمت الدولة الرومانية إلى قسمين، قسم شرقي تحت حكم أنطونيوس، وقسم غربي تحت حكم أوكتافيوس (أوكتافيان - أغسطس)، ولم تكن كليوباترا قد تخلت بعد عن حلمها الأول بأن تصبح ملكة على

عرش روما، فسعت إلى التحالف مع أنطونيوس وقد نجحت في تحقيق ذلك .

أصبح جليا أن تحالف أنطونيوس مع كليوباترا يعني عدم إمكانية تواجد قوتان كبيرتان في العالم الروماني، قوة أنطونيوس وقوة أوكتافوس، لذا عمل كل طرف منهما على التخلص من خصمه بعد أن كانا متحالفتان، ولكن قبل أن تظهر كليوباترا بينهما .

استغل أوكتافوس الإجراءات التي قام بها أنطونيوس في الأراضي الشرقية لصالح كليوباترا، وأجج الأمور إعلان أنطونيوس طلاقه من أوكتافيا أخت أوكتافوس، وأشعل نار الغضب الروماني ضد أنطونيوس، وباتت المعركة وشيكة بين الطرفين .

في أواخر عام ٣٣ ق.م. استقر أنطونيوس وكليوباترا في أفسوس لتجميع قواتهما استعدادا للحرب القادمة، وكان الرومان في جيش أنطونيوس رافضين تماما وجود الملكة كليوباترا بينهم والدفاع عنها، ولكن مع إلحاح أنطونيوس عليهم بحجة أنها كانت تمول الجيش والأسطول من موارد مصر فأنها بقيت بينهم .

لم تلبث سنة ٣٢ ق.م. أن تدخل إلا وكان أنطونيوس قد نجح في جمع جيش قوامه حوالي تسعون ألفا مدعوما بأسطول من خمسمائة سفينة، وتحرك بقواته غربا صوب بلاد اليونان .

في ربيع عام ٣١ ق.م. عبر أوكتافوس مع جيش يقارب عدده عدد جيش أنطونيوس مدعوما بأربعمائة سفينة إلى أبيروس، وأصبح في

مواجهة مع جيش خصمه، وبالفعل وقعت المعركة على سواحل بلاد اليونان عند خليج أكتيوم، وتم حصار أسطول أنطونيوس عند مضيق أكتيوم، وفشل تماما أنطونيوس في جر غريمه إلى حرب برية، واستطاع أوكتافيوس منع الإمدادات عن جيش أنطونيوس والذي بدأ يعاني نقص الإمدادات وتفشي الوباء والمرض .

يبدو أن الأمور قد تعقدت في معسكر أنطونيوس، وتجددت المطالب بمغادرة كليوباترا معسكر الجيش، وبدأ الكثير من ضباط وجنود أنطونيوس يتخلون عنه ويوالون قوات أوكتافيوس، فلم يجد أنطونيوس أمامه إلا محاولة اختراق الحصار بما تبقى لديه من سفن حيث كانت معظم سفنه قد وقعت في الأسر .

استطاع أنطونيوس الوصول إلى الإسكندرية بأعجوبة وصار يجمع كل ما أمكنه للدفاع من جديد، وفي نفس الوقت كان أوكتافيوس يتقدم في ثبات إلى السواحل المصرية منتشيا بالنصر حتى وصل إلى سواحل الإسكندرية في صيف عام ٣٠ ق.م.، وكانت معظم قوات أنطونيوس قد استسلمت إليه .

انتاب أنطونيوس اليأس، وأدرك أنه مهزوم لامحالة، فقرر الانتحار وتبعته كليوباترا السابعة، معلنين بذلك هزيمتهم تماما، وانتهاء عصر البطالمة، وتحول مصر إلى ولاية رومانية تحت الحكم المباشر لأوكتافيوس .

المعارك الفاصلة في العصور الوسطى

الفتح الإسلامي ٦٤١ م :

يتضح للقارئ أو الباحث لتاريخ مصر منذ الوهلة الأولى أن مصر قد تعرضت طوال تاريخها لكثير من الغزوات لأسباب عدة، إلا أن مصر لم تستسلم أبدا لمستعمر أو تنزل على أمر دخيل، ولكن رحب المصريون بالحكم العربي الإسلامي ورأوا فيه خلاصا لهم من بطش الروم، بل اندمج المصريون مع العرب الفاتحين وأقبلوا على دخول الإسلام باقتناع تام .

وبمرور الزمن دخلت في القومية المصرية خصائص جديدة، تتمثل في دخول معظم المصريين في الإسلام، واندماجهم في الثقافة العربية، فأصبحت شخصية مصر بعناصرها الأساسية التي ورثتها عبر القرون، وتأثرت فيها بالشعوب التي اختلطت بها، تضيف إليها فكرا جديدا وهو الإسلام، وثقافة عربية، ولغة جديدة هي العربية.

إذن تغيرت الشخصية المصرية وأصبحت شخصية مصرية عربية إسلامية، واندمجت بسببها في الدولة العربية الإسلامية، الأموية أو العباسية، لذلك تغيرت نظرة المصريين إلى العرب، ورأوا فيهم أخوة يعيشون معهم على قدم المساواة في الدولة الإسلامية الكبرى وفي عالم الإسلام الكبير، يشتركون معهم في المحافظة على الإسلام وفكره وثقافته ولغته العربية، وبمرور الزمن أصبحت مصر قبلة لطلاب العلم يفدون إليها من مختلف بلاد الإسلام .^(٨)

كل هذا وأكثر، جعل من معارك الفتح الإسلامي لمصر معارك فاصلة في تاريخ الأمة المصرية الباسلة وأما عن أطرافها، فهم العرب المسلمون القادمين من الجزيرة العربية بعد أن أتموا فتح الشام، ضد الروم البيزنطيين المحتلين لمصر منذ حوالي سبعمائة عام، وكان الطرف الذي سينضم إليه المصريين واضحا منذ الوهلة الأولى، وهو جيش المسلمين لأسباب كثيرة متعلقة بالاضطهاد الديني والمذهبي من البيزنطيين للمصريين، وصلات القرابة والرحم بين قبائل شبه الجزيرة العربية والمصريين .

كان قائد هذا الفتح العظيم الذي عرفه العرب بفتح الفردوس، هو عمرو بن العاص أحد أشهر الصحابة، وواحد من دُعاة العرب المعروفين في الحرب، وكان الفتح في زمن الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويبدو أن الخليفة عمر كان لديه بعض الاعتراضات على هذا الفتح لانشغال الجيوش الإسلامية

٨ - (د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي - مصر الإسلامية - ص ٣٢)

بافتوحات شرقا ومعاركهم المتلاحقة ضد الفرس والروم، فكان عمر يأبى أن يفتح جبهة جديدة للحرب يدخل فيها المسلمون وهم غير مؤهلين لها، إلا أن عمرو بن العاص ظل يلح على الخليفة عمر، واستغل فرصة وجود الخليفة عمر في الشام وكرر عرضه عليه .

عقد مؤتمر في الجابية تدارس فيه القادة المسلمون مسألة فتح مصر، وفي نهاية الاجتماع اتفقوا على وجوب الفتح لتأمين فتوح الشام، كما أن لمصر ثقلها الذي يدعم الجهود البيزنطية ضد المسلمين .

أحسن المسلمون الاستعداد، واتفق على أن يكون عمرو بن العاص هو قائد جيش الفتح، وأمه الخليفة عمر بن الخطاب بجيش قوامه بين الثلاثة آلاف والأربعة آلاف مقاتل، واتجه مباشرة عمرو بالجيش للفتح، ويبدو أنه دخل العريش دون مقاومة تذكر وسط ترحيب من أهلها، واستكمل الزحف حتى وصل إلى مدينة الفرما وهي المعروفة الآن ببورسعيد وحاصرها شهرا ثم دخلها بمعاونة القبط المصريين .

واصل عمرو السير بجيشه حتى وصل بلبيس بالشرقية وواجه بها أربطبون القائد البيزنطي الشهير، إلا أن مقاومة البيزنطيين لم تدم أكثر من شهر بها، ودخلها عمرو منتصرا فاتحا كسابقتها من المدن المصرية، ثم استول على أم دنين، وواصل المسير إلى حصن بابليون القوي والذي تحصنت بداخله الفرق العسكرية البيزنطية .

حاصر المسلمون حصن بابلين، وكانت إمدادات جديدة أرسلها الخليفة عمر بن الخطاب قد وصلت إلى مصر بقيادة أربعة من خير قادة المسلمين وأشهرهم، وهم : الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، والمقداد بن عمرو التميمي، ومسلمة بن مخلد الأنصاري؛ ويبدو أن قائد البيزنطيين ويدعى تيودور قرر الخروج من الحصن لقتال المسلمين، إلا أن الهزيمة قد لحقت به وعادت فلول جنده إلى الحصن مرة أخرى .

لم يكن الاستيلاء على الحصن أمرا يسيرا أبدا، ودام حصار المسلمين للحصن أكثر من سبعة أشهر، إلا أن المسلمين استطاعوا اقتحام الحصن بفضل شجاعة واقدام الزبير بن العوام، وقد أعطى عمرو بن العاص الأمان إلى الجند الروم الذين سلموه الحصن على حياتهم، ووافق على جلاء الجند الروم عن الحصن حاملين معهم أقاتهم، وأما ما تبقى في الحصن من أسلحة وذخائر فهي للعرب .

بعد إتمام فتح حصن بابلين وما حوله، زحف المسلمون إلى الاسكندرية وكانت عاصمة مصر منذ عصر الإسكندر الأكبر، وهي متصلة بالقسطنطينية عاصمة البيزنطيين من خلال البحر المتوسط، إلا أن القبط المصريين سَخروا كل الإمكانيات المتاحة لديهم للمسلمين الفاتحين، وحقق المسلمون عدة انتصارات على الروم قرب الاسكندرية وداخلها، وزاد حصار الإسكندرية على تسعة أشهر حتى خضعت تماما للمسلمين .

بعد إتمام فتح الإسكندرية، أرسل عمرو بن العاص حملة بقيادة خارجة بن حذافة نجحت في فتح الصعيد وإخراج البيزنطيين منه، ويبدو أن الصعيد تم فتحه دون مقاومة تذكر .

على أي حال، أتم عمرو بن العاص فتح مصر سنة ٢١هـ / ٦٤١م، في غضون عامين وبضعة أشهر والذي اعتبره كثير من المؤرخين زمنا قياسيا لفتحها، وأصبحت مصر منذ حينها هي قلب العالم الإسلامي النابض والمدافع عنه على مر العصور وقبلته العلمية التي يفد إليها طلاب العلم المسلمين من جُل أنحاء العالم الإسلامي .

ذات الصواري ٦٥٤م :

تُعتبر معركة ذات الصواري البحرية واحدة من أهم المعارك في تاريخ الأمة المصرية، بل والأمة الإسلامية كلها، ففي الوقت الذي كان فيه للمصريين باعا طويلا في معارك البحر منذ عصر الفراعنة، إلا أنها المرة الأولى التي يخوض فيها المصريين حربا بحرية في ظل الحكم الإسلامي، وتعتبر كذلك هذه المعركة هي المعركة البحرية الأولى التي يخوضها أسطولا إسلاميا في البحر المتوسط .

كانت المعركة بين الأسطول الإسلامي والأسطول البيزنطي، وقد وقعت في عصر الخليفة الراشد عثمان بن عفان، بعد أن كان عمر بن الخطاب يخشى على المسلمين ركوب البحر للغزو، خاصة

وأن عمرو بن العاص كان قد وصف البحر للخليفة عمر قائلًا «يا أمير المؤمنين .. إنني رأيت البحر خلقًا كبيرًا يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء، إن ركد أحزن القلوب، وإن ثار أزاع العقول، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق». (٩)

لم يكن عثمان بن عفان أقل حذرًا من عمر في ركوب البحر، ولكنه كان يرى التروي والصبر حتى يعد المسلمون لذلك جيدًا، وكان لقبط مصر الدور الأكبر في إعداد هذا الأسطول وهم الذين قد برعوا في بناء السفن عبر العصور، وتعاون الأسطولان المصري والشامي في انتزاع السيادة على كامل البحر المتوسط ليد المسلمين.

أما عن أسباب معركة ذات الصواري فهي متداخلة، ولكن يبدو أن السبب المباشر لمعركة ذات الصواري هو تحرك الامبراطور قنسطانز الثاني للهجوم على السواحل الإسلامية انتقامًا لقيام عبد الله بن سعد بن أبي السرح والي مصر حينها بغزو إفريقية، فخرج قنسطانز في أسطول كبير يُقدر بخمسمائة مركب أو يزيد، فخرج أهل الشام بقيادة معاوية وأهل مصر بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح تحسبًا لهذا الهجوم، والتقى الأسطول الإسلامي بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح في مائتي مركب مع الأسطول البيزنطي الذي بلغ ثلاثة أضعاف الأسطول

٩- (الكندي - ولاية مصر - ص ٥٩)

الإسلامي، لكن الأسطول الإسلامي لقن الأسطول البيزنطي درسا قاسيا وأحرز عليه انتصارا عظيما كان إيذانا بانتهاء السيادة البيزنطية على البحر المتوسط وتحولها لصالح المسلمين .^(١٠)

عُرفت المعركة بذات الصواري، نسبة إلى كثرة سواري السفن التي استخدمت فيها، وتطورت كلمة سواري وهي جمع ساري السفينة، وأصبحت ذات الصواري .

أما عن المعركة، فيبدو أن القتال في بدايته كان تراشقا بالنبال والنشاب، فلما نفذت سهام اقتتل الفريقان بالحجارة واتخذ العرب خطة حربية قوية، فربطوا سفنهم بعضها ببعض بالسلاسل، مما جعل من المتعذر والصعب على الروم اختراق صفوفهم، كذلك استخدم العرب في نفس الوقت خطاطيف طويلة، كانوا يقذفونها على سفن العدو، فيصيبون بها صواريخهم، ثم يجرونها إلى جوار سفنهم، فأصبحت المعركة وكأنها معركة برية.

اختلف المؤرخون حول مكان المعركة، فيرى البعض إنها باتجاه المغرب، وهناك من يرى أن المعركة دارت عند شواطئ كيليكيا قرب سواحل الأناضول، الذي تنمو فيه بكثرة الغابات، التي يستخرج منها الخشب الصالح لبناء السفن وصواريخها .^(١١)

١٠- (أ.د. محمد بركات البيلي - تاريخ الدولة العربية الإسلامية - ص ١٧٩)

١١- (د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي - مصر الإسلامية - ص ٥٣)

على أي حال، يتضح مما ذكرنا أن معركة ذات الصواري كان لها أثراً كبيراً على الأمة الإسلامية والتي بدورها تتضمن الأمة المصرية كإحدى العناصر المكونة لها، وكيف كان للمصريين دوراً عظيماً في التجهيز لهذه المعركة والاشتراك في تحقيق هذا النصر العظيم للأمة بأسرها .

حطين ١١٨٧م :

معركة حطين هي واحدة من أهم المعارك في تاريخ مصر والعالم الإسلامي، وهي إحدى الحلقات المؤثرة في سلسلة الصراع الإسلامي الصليبي الممتد عبر العصور، والحملة الصليبية هي حملات استعمارية جاءت من أوروبا إلى العالم الإسلامي تستر خلف الدين المسيحي، ونجحت في استغلال حالة الضعف والانقسام التي كان يعاني منها العالم الإسلامي وأسست لنفسها مجموعة من الإمارات الصليبية على أراضي المسلمين في الشرق وكان من بينها مملكة بيت المقدس والتي وقعت أسيرة في يد الصليبيين لفترة زادت على التسعين عاماً حتى استطاع السلطان الناصر صلاح الدين استردادها من أيديهم .

كان السلطان الناصر صلاح الدين وهو كردي الأصل، أحد القادة في جيش نور الدين محمود وواحد من أمراء السلاجقة في الشام، وقد استطاع صلاح الدين إسقاط الدولة الفاطمية

الشيعة التي كانت تحكم مصر حينها وأسس دولته على أراضيها، واستطاع أن يوحد المثلث الإسلامي الممثل في مصر والعراق والشام ليتفرغ بعد ذلك لاسترداد الأراضي التي نهبها الصليبيون في الشرق الإسلامي، وعلى رأسها القدس الشريف .

أما عن السبب المباشر لمعركة حطين، فقد كان صلاح الدين ملتزماً بالهدنة التي عقدها مع الصليبيين في الشرق مستغلاً إياها في الإعداد والتجهيز لمعركته الفاصلة معهم، إلا أن رينو دي شاتيو (أرناط) وهو أمير حصن الكرك الصليبي الواقع في حدود الأردن الحالية نقض هذه الهدنة وانقض على قافلة كبيرة للمسلمين يقال أنه كان بها إحدى عائلات البيت الأيوبي أو كان بها أخت صلاح الدين، وقيل أمه، واستولت على القافلة وأسرى رجالها في حصن الكرك وأساء معاملتهم .

أرسل صلاح الدين إلى أرناط مهدياً إياه وطالبا منه، أن يرد الأسرى والغنائم، ولكن أرناط رفض طلب صلاح الدين، ورد عليه رداً استفزازياً، إذ أرسل يقول له « فليأت محمدكم ليخلصهم »، ومع ذلك فقد تمالك صلاح الدين نفسه وظل محترماً لشروط الهدنة مع الصليبيين، وأرسل إلى أرناط يقول له « أين العهود والمواثيق، رد ما أخذت»، وأرسل صلاح الدين كذلك إلى جاي دي لوزينان، ملك بيت المقدس، طالبا منه أن يرغم أرناط على رد الأسرى والبضائع، غير أن جاي لم يفلح في هذه المهمة .^(١٢)

١٢ - (د. ليلي عبد الجواد إسماعيل - تاريخ الأيوبيين والمماليك في مصر والشام - ص ٦٠)

لم يعد أمام صلاح الدين مفر من إعلان الحرب، وأخذ في تعبئة جيشه والاستعداد للمعركة، وتحرك صلاح الدين تسبقه فرق الاستطلاع، وقام صلاح الدين بإفساد آبار المياه في طبرية حتى لا ينتفع بها الصليبيين، وفي الجهة الأخرى فرض أرناط رأيه على أمراء الصليبيين بضرورة مفاجأة المسلمين عند طبرية، وكانت حماقة أرناط هذه كافية لجر الصليبيين إلى التهلكة خاصة في حر الصيف الشديد بما يحمله الجنود الصليبيين من متاع وسلاح وزي حديدي، وسيقطعون بكل ذلك مسافة طويلة في الصحراء حتى يصلوا إلى جيش صلاح الدين .

بالفعل وصل الصليبيين منهكين إلى طبرية، وأسرعوا إلى الآبار لري عطشهم، إلا أنهم وجدوا أن صلاح الدين كان قد سبقهم إليها وأفسدها، وتحقق لصلاح الدين ما أراد حيث أجبر الصليبيين على ترك مواقعهم عند صفورية والمجئ إلى طبرية منهكين .

أشعل المسلمون النار في الحشائش الموجودة أسفل هضبة حطين، وكان الهواء على الصليبيين، فحمل لهم حر النار والدخان بالإضافة إلى حر الشمس، وأحاط بهم المسلمون من جميع الجهات وأعملوا فيهم القتل، ومن نجا منهم كان مصيره الأسر، فقال ابن الأثير عن ذلك اليوم « وكان من يرى الأسرى لكثرتهم لا يظن هناك قتلى، فإذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى»، وكان من بين الأسرى جاي لوزينان ملك بيت المقدس، وأرناط أمير حصن الكرك، وجيرار مقدم الداوية أو ما يعرف بفرسان المعبد .

أطلق صلاح الدين سراح الأسرى إلا أرناط الذي قتله صلاح الدين بيده جزاء له لما قام به في حق قوافل المسلمين .

على أي حال تعتبر معركة حطين معركة فاصلة في تاريخ الحروب الصليبية، حيث مهدت الطريق لاسترداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين، وكانت سببا في إعادة توحيد العالم الاسلامي خلف صلاح الدين لاسترداد الأراضي الاسلامية المغتصبة من الصليبيين، كما وجهت أنظار الصليبيين إلى مصر والتي رأوا ضرورة الاستيلاء عليها إذا ما أرادوا تكوين مملكتهم في القدس، ولم تكن هي المعركة الوحيدة أو الأخيرة التي خاضها صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين، لكنها تعتبر أهمهم وأشهرهم وأكثرهم تأثيرا في تاريخ الحملات الصليبية الاستعمارية على بلاد المسلمين .

المنصورة ١٢٤٩م :

تعتبر معركة المنصورة واحدة من أهم المعارك الفاصلة في تاريخ الحروب الصليبية، وكانت إحدى المعارك التي تصدى فيها المصريين للحملة الصليبية السابعة، بعد أن حولت الحملات الصليبية وجهتها إلى مصر حيث تأكد الصليبيون أنهم لن تستتب لهم الأوضاع في القدس إلا بعد القضاء على مصر تماما .

تزعّم لويس التاسع ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة على مصر مدعوما من الباباوية والجنود الأوروبيون وكانت

هذه الحملة على مصر إبان حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب الأيوبي لمصر، ومن الجدير بالذكر أن الملك الصالح كان على علاقات طيبة بالإمبراطور فريدريك الثاني الألماني والذي أرسل إلى الملك الصالح الموجود حينها بالشام ليخبره بأمر هذه الحملة الصليبية التي أعدتها الباباوية وتقرر أن يخرج على رأسها ملك فرنسا لويس التاسع بقصد الاستيلاء على مصر .

بعد أن علم الملك الصالح نجم الدين أيوب بتطورات الموقف في أوروبا وقرب وصول الحملة الصليبية إلى مصر، اتخذ من الترتيبات العسكرية ما يضمن به عدم سقوط دمياط مقصد الصليبيين في أيديهم حيث كان قد أمر قائده فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالإسراع والذهاب إلى دمياط وشحنها بالجنود والسلاح لتكون مستعدة لمواجهة الفرنسيين، كم أمر قبائل بني كنانة بالنزول قرب هذا الموضع لنفس الغرض .

يبدو أن الملك الصالح كان مريضا وهو بالشام، فقد حُمِلَ على ظهر محفة، ونزل على مقربة من دمياط، وبدأ يضع الترتيبات اللازمة، ويتخذ كافة الاستعدادات لمواجهة حملة لويس التاسع وذلك في المحرم من ٦٤٧هـ / أبريل ١٢٤٩م، ووقفت شجر الدر إلى جوار زوجها وهو يعد العدة للقاء لويس التاسع ملك فرنسا، ويتخذ كافة الاستعدادات لهذا اللقاء .^(١٣)

١٣ - (د. ليلي عبد الجواد إسماعيل - تاريخ الأيوبيين والماليك في مصر والشام - ص ١٦٣)

وصلت المراكب الفرنسية إلى دمياط ونزلوا إلى البر الذي عساكر المسلمين فيه وهو البر الغربي، وفي نفس الليلة رحل الأمير فخر الدين يوسف بمن معه من عساكر من البر الغربي إلى البر الشرقي واتجه صوب اشموم، وعندما رأى أهل دمياط رحيل الجيش صحبة الأمير فخر الدين تركوا المدينة وخرجوا في نفس الليلة هائمين على وجههم بمن معهم من الأطفال والنساء وساروا إلى القاهرة، ولم يبق بالمدينة أحد البتة، وصارت دمياط فارغة من الناس جملة، كما أن بني كنانة الذين اعتمد على شجاعتهم الملك الصالح نجم الدين أيوب تركوا دمياط مثلهم في ذلك مثل الجيش والحامية وأهل المدينة .^(١٤)

على أي حال، سقطت دمياط في يد الصليبيين دون قتال، ودخلوا المدينة وقاموا فيها بأعمال السلب والنهب، أما عن الملك الصالح فقد قرر الرحيل إلى المنصورة واتخاذها خط دفاع أول ضد الصليبيين، وقرر معاقبة الأمير فخر الدين وأمراء بني كنانة على انسحابهم من أمام الصليبيين في دمياط .

انتظر لويس التاسع في دمياط خمسة أشهر كاملة دون أن يفكر أن يتحرك إلى غيرها من المدن المصرية، ويبدو أنه كان منتظرا للإمدادات والتي قدمت بالفعل من أوروبا، وفي ظل كل هذه الأحداث والظروف العصيبة التي تمر بها البلاد، لم يلبث الملك الصالح نجم الدين أيوب أن توفى بالمنصورة، وهنا اتفقت شجر الدر

١٤ - (د. حامد زيان غانم - الحروب الصليبية - ص ١٩١)

زوج الملك الصالح مع كبار قادة الجيش على أن يتكتموا خبر الوفاة بينهم حتى لا يتسرب إلى الجند اليأس والضعف، وأرسلوا سرا لاستقدام توران شاه بن الملك الصالح ليتولّى السلطنة خلفا لأبيه .

أسرع توران شاه بالقدوم إلى مصر، إلا أنه وصل بعد أن نجح لويس التاسع في اقتحام المنصورة، بل وقتل مقدم العسكر الأمير فخر الدين يوسف، وتدهورت الأحوال وساءت الظروف، وبات سقوط القاهرة نفسها في يد الصليبيين أمرا وشيكا، ولولا حسن تصرف توران شاه في هذه الأحداث لكانت الحملة الصليبية تمكنت من مصر كلها .

قرر توران شاه استقدام فرقة المماليك من قلعة الروضة واشراكهم في قتال الصليبيين، على أن يقوم المماليك بمباغثة الصليبيين بالهجوم عليهم، في حين يطبق عليهم توران شاه ومن معه من الجنود، ويبدو أن هؤلاء المماليك كانوا في اشتياق للقتال وخوض المعارك، ونزلوا على الصليبيين كالصواعق وأثبتوا مهارة وكفاءة عالية .

انقلب انتصار الصليبيين إلى هزيمة ساحقة لهم، وأصبحوا بين قتيل وأسير، حتى أن الملك لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة وقع بنفسه أسيرا في يد المصريين، وتم اقتياده مكبلا بالقيود إلى دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان .

وقد وضعت شروط قاسية على الملك لويس التاسع ليفتدي نفسه ومنها أن يفدى بثمانمائة ألف دينار من الذهب يدفع نصفها حالا ونصفها بعد عودته إلى بلاده، وأن يحتفظ توران شاه بالأسرى الصليبيين إلى أن تُدفع بقية الفدية، وأن يتم إطلاق سراح الأسرى المسلمين وتسليم دمياط للمسلمين، وهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات، وهكذا أعلنت هذه الحملة الصليبية على مصر فشلها .

عين جالوت ١٢٦٠ م :

عين جالوت ليست معركة فاصلة في تاريخ مصر فقط، بل في تاريخ العالم الإسلامي قاطبة، فقد استطاعت دولة المماليك في مصر بالانتصار في عين جالوت، حماية معالم العالم الإسلامي كله من التدمير، فقد تصدت لخطر المغول الذين قدموا من وسط آسيا بعد توحيد قبائلهم على يد جنكيز خان، وسعوا إلى السيطرة على العالم كله في جميع الاتجاهات وكونوا إمبراطورية ضخمة على أراض شاسعة في آسيا وأوروبا، وسقطت في أيديهم أراضي الدولة العباسية واحدة تلو الأخرى حتى أن عاصمة العباسيين بغداد قد سقطت في أيديهم، وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم نفسه ودمروا معالمها تماما، ثم زحفوا صوب الشام ومن ثم مصر وأعلنت الولايات والإمارات الإسلامية الواحدة تلو الأخرى الخضوع للمغول، ولم يقف أمامهم إلا مصر آخر الحصون القوية التي يمكن أن تحتمي بها أمة الإسلام .

كانت مصر تُعاني في هذه الفترة من الاضطرابات الداخلية والتصارع بين المماليك على الحكم، وآل الحكم إلى طفل صغير هو المنصور علي بن أيبك وفي رواية نور الدين علي بن أيبك، وفي ظل هذه الأحداث العصبية اتخذ سيف الدين قطز قراره الجريء بعزل السلطان الطفل وتولي عرش مصر بنفسه لمحاولة التصدي للخطر المغولي القادم لا محالة .

عمل قطز على إعداد وتهيئة الجبهة قبل المواجهة المرتقبة، حيث كان قد تسلم تركة مثقلة بالمشاكل، ووضع شديد التأزم سياسيا واقتصاديا وعسكريا .

عمل قطز على توحيد الأمة مستخدما الأخلاق العالية والأهداف النبيلة، إلا أنه لم يتخل عن حزمه في الإدارة وعن أخذه بأسباب السيطرة على الأمور، وأصدر عفوا عن خصومه المماليك وعلى رأسهم بيبرس، وذلك لتجميع الطاقات لحرب المغول بدلا من الدخول في معارك جانبية تزيد الضعف والفرقة .

ورغم ما كان يعانيه الشعب المصري في هذا الوقت من أزمات اقتصادية، إلا أن ذلك لم يؤثر في ثقافة الشعب المصري التي تعي أهمية الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الدين والوطن، وبذلك كان لقطز ظهيرا شعبيا قويا ساعده على ما قام به من استعدادات، ووجد شعبا متقبلا لما قام به من إصلاحات، ولا نستطيع أن نغفل الدور العظيم الذي قام به الشيخ العز بن عبد السلام والذي كان

عونا مهما لقطز في بث معاني الجهاد والتضحية في الشعب بعد ذلك .

بالفعل وصلت رسل هولاءكو المغولي إلى مصر، ويبدو أن المعركة ستكون أقرب مما يتمناه قطز الذي لم ينهي استعداداته بعد، وكانت الرسالة مليئة بالإرهاب والتهديد والوعيد .

عقد قطز مجلسا عسكريا للتباحث في كيفية الرد على رسالة المغول، وكان رأي الكثير من القادة هو الاستسلام للمغول وعدم حربهم، إلا أن قطز أصر على القتال وأخذ يلهب حماس قادة المماليك ويحثهم على الجهاد للدفاع عن الإسلام قائلًا لهم « من للإسلام إن لم تكن نحن ؟ » .

قرر قطز قطع رءوس الرسل المغول وكانوا أربعة، وأمر بتعليق رءوسهم على باب زويلة أحد أبواب القاهرة، ومع عدم جواز قطع رأس الرسول شرعا، إلا أن هذا العمل أدى إلى طمأنة الشعب المصري بأن قائدهم لا يخاف المغول ورفع من معنويات المصريين، كما كان رسالة للمغول ليعلموا أنهم قادمين إلى أمة تختلف عن الأمم التي واجهها المغول من قبل .

كانت البلاد تعاني من أزمة اقتصادية طاحنة كما أسلفنا، في الوقت الذي يحتاج قطز إلى الأموال لاستكمال التجهيزات العسكرية، فاقترح أن تفرض ضرائب على الشعب لدعم الجيش، إلا أن الشيخ العز بن عبد السلام قال « إذا طرق العدو البلاد وجب

على العالم قتالهم، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم بشرط أن لا يبقى في بيت المال شئ، وأن تبيعوا ما لكم من الممتلكات والألات ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه، وتساوا في ذلك أنتم والعامه، وأما أخذ أموال العامه مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والألات الفاخرة فلا »

أنهى قطز الاستعدادات في ظل الإمكانيات المتاحة، وقرر أن ينقل المعركة إلى ميدان خصمه، بدلاً من الانتظار في مصر مما يجعل فرص سقوط القاهرة في يد المغول أقل، كما أن نقل المعركة إلى خارج مصر سيمكن قطز من تحقيق عنصر المفاجأة للعدو، وبالفعل بدأ الجيش يتجمع في الصالحية بمحافظة الشرقية الآن، ثم أعطى قطز إشارة التحرك في اتجاه فلسطين لمباغته المغول .

قسّم قطز الجيش إلى قسمين، الأول فرقة كبيرة نسبياً بقيادة ركن الدين بيبرس، وجعل هذه الفرقة تتقدم عن بقية الجيش، بينما يتخفى بقية الجيش بقيادته في تحركاته حتى يظن جواسيس المغول أن فرقة المقدّمه تلك هي كل الجيش، ثم يباغتهم ببقية الجيش ويحقق المفاجأة .

كانت أول مواجهة بين المسلمين والمغول في غزة، وقد استطاع بيبرس تحقيق نصر كاسح على حاميه المغول المتواجدة في غزة، ثم استكمل الجيش طريقه بالاتجاه شمالاً بمحاذاة ساحل البحر المتوسط، ووصلت فلول المغول المهزومين في غزة إلى كتبغا قائد

المغول المتواجد في سهل البقاع بלבنان، فغضب كثيرا وقرر الزحف لمواجهة المسلمين .

وصل قطز إلى منطقة عين جالوت، وقرر أن يستدرج المغول إلى هذه المنطقة المناسبة جدا لقتالهم، فهي عبارة عن سهل واسع منبسط تحيط به التلال المتوسطة من كل الجهات إلا الشمال، كما تعلو هذه التلال الأشجار والأحراش، مما يوفر مخابأ مناسبة للجيش ويسهل عمل الكمانن للعدو .

بالفعل وضع قطز مقدمة الجيش بقيادة بيبرس على الناحية الشمالية لإغراء جيش المغول بالنزول إليها ظنا منهم أن هذه الفرقة هي كل الجيش، واختفى قطز مع بقية الجيش في الأحراش، واجتمع لقطز الكثير من المتطوعين من أهل فلسطين .

وصلت جيوش المغول بقيادة كتبغا إلى عين جالوت، وانخدع بقلة عدد فرقة المقدمة، فقرر أن يدخل المعركة بكامل جيشه ليحسمها سريعا، وتقابل الجيشان وعلت صيحات التكبير وسالت الدماء، وثبت بيبرس ورجاله في وجه المغول حتى جاءت الإشارة من قطز ويتظاهر بالانسحاب إلى داخل السهل حتى يتبعه المغول، وتحمس كتبغا لملاحقة فرقة بيبرس إلى داخل السهل .

ما لبث كتبغا أن دخل بجيش المغول إلى داخل السهل، إلا وخرج قطز برجاله من بين الأحراش ودخلوا من المدخل الشمالي للسهل، وأحاطوا بالمغول، إلا أن ميمنة جيش المغول كانت في غاية

القوة، وكادت أن تهزم ميسرة المسلمين، فنزل قطز بنفسه إلى قلب المعركة وألقى خوذته على الأرض وصاح بأعلى صوته «والإسلاماه»، تلك الكلمة التي كان لها بالغ الأثر في إلهاب حماس الجنود، وهونت عليهم قوة وكثرة المغول حتى سقط كتبغا قائد جيش المغولا قتيلا .

بدأت قوات المغول في الهرب، وقطرز يتتبعهم حتى وصلوا إلى بيسان وبها وقع بالمغول مقتلة عظيمة وانهارت تماما أسطورة جيشهم الذي لا يُقهر .

المعارك الفاصلة في العصر الحديث والمعاصر

ديوالبحرية ١٥٠٩ م :

معركة ديوالبحرية هي إحدى المعارك البحرية المهمة التي خاضتها البحرية المصرية عبر العصور المختلفة، وكانت ضد أحد أساطيل البرتغال بالقرب من جزيرة ديو في المحيط الهندي، وقد وقعت هذه المعركة زمن السلطان المملوكي قنصوه الغوري في عام ١٥٠٩م، ويبدو أنها كانت بسبب تراكم الخلافات بين دولة المماليك في مصر والشام من ناحية، ومن الناحية الأخرى دولة البرتغال التي كان لها تحركات عدائية واستعمارية ضد الأراضي الإسلامية في الشرق .

فقد نجح البرتغاليون في السيطرة على معابر التجارة في الساحل الإفريقي والخليج العربي وبحر العرب، ومنعوا وصول المنتجات الشرقية إلى أوروبا، وساعدهم على تحقيق ذلك عدم

وجود منافس بحري قوي لهم، وارتكبوا العديد من المذابح وقاموا بأعمال الحرق والترويع والقتل في المناطق التي سيطروا عليها، بل ووصل الأمر إلى حد الاعتداء على حرمان الناس ومنع المسلمين من الذهاب إلى الحج وهدم المساجد عليهم .

كانت دولة المماليك في هذا الوقت مشغولة بأزماتها السياسية والاقتصادية الداخلية، ولهذا فقد واجه السكان في الساحل الإفريقي والخليج العربي واليمن مصيرهم بأنفسهم، وعملوا على مقاومة البرتغاليين ومهاجمة حامياتهم المنتشرة في كل مكان، إلا أن هذه المقاومة لم تنجح بسبب الفروقات الواضحة في موازين القوة .

على أي حال، ورغم ما تعانيه دولة المماليك من أزمات داخلية طاحنة، إلا أن المماليك في مصر شعروا بالمسئولية تجاه الأمة الإسلامية، وبدلوا ما في استطاعتهم للحد من وصول البرتغاليين إلى الأماكن المقدسة في الحجاز التي طالما هدد البرتغاليون بالوصول إليها .

أمر السلطان المملوكي قنصوه الغوري بإرسال حملة بحرية مكونة من ثلاث عشر سفينة، عليها ألف وخمسمائة رجل بقيادة حسين الكردي، الذي وصل إلى جزيرة ديوث ثم إلى جزيرة شول والتقى مع الأسطول البرتغالي بقيادة الونزدي الميدا في عام ١٥٠٨م فكان النصر حليفه، ثم إن البرتغال عززوا قواتهم وأعادوا الكرة مرة

أخرى مما أدى إلى هزيمة الأسطول الاسلامي في ١٥٠٩م في معركة ديو المشهورة في التاريخ .^(١٥)

تأثرت دولة المماليك في مصر كثيرا بالهزيمة في ديو البحرية، فبالإضافة إلى الهزيمة العسكرية والخسائر المادية، فقد فقدت مصر أهم ما يميزها في تلك الفترة، ألا وهو السيطرة على الطرق التجارية، وانتهت السيطرة على الطرق التجارية بين الشرق وأوروبا إلى أيدي البرتغاليين، في الوقت الذي لم تكن تمتلك فيه مصر القوة الكافية لاستعادة هذه السيطرة .

ترتب على ذلك حدوث إنهيار اقتصادي شديد لدولة المماليك، صحبه تدهورا في قدرتها العسكرية، الأمر الذي بات يؤكد على أن هذه الدولة التي كانت تسيطر على معظم العالم الإسلامي في العصور الوسطى قد آن أوانها للأفول والانهاء، وهو ما سيتضح في المعارك التي سنتحدث عنها .

مرج دابق ١٥١٦م - الريدانية ١٥١٧ م :

مرج دابق والريدانية معركتان منفصلتان متصلتان، منفصلتان من حيث المكان، متصلتان من حيث النتائج والأحداث والأطراف، فكلا المعركتين قد وقعتا بين العثمانيين والمماليك، أما مرج دابق فوُقعَت في الشام، بينما وقعت الريدانية في صحراء

١٥ - (د. علي محمد الصلابي - الدولة العثمانية - ص ٢٢٥)

العباسية في مصر، وهما معركتان فاصلتان في تاريخ مصر والعالم الإسلامي حيث ترتب عليهما انتهاء دولة المماليك في مصر والشام وفتح الطريق أمام السلطان سليم الأول العثماني للسيطرة على العالم الإسلامي قاطبة وإعلان نفسه الحامي الوحيد للحرمين الشريفين ولجميع رعاياه في العالم الإسلامي .

كانت العلاقات طيبة ووطيدة بين الدولة العثمانية في الأناضول (تركيا الحالية)، ودولة المماليك في مصر والشام، وقد اتضح ذلك في عدة مواقف منها الاحتفالات التي أقامها المماليك في مصر فرحا بفتح العثمانيون للقسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية على يد السلطان محمد الفاتح رحمة الله عليه عام ١٤٥٣م، وكذلك في المساعدات التي قدّمها العثمانيون للمماليك أثناء صراعهم مع البرتغاليين .

ويبدو أن العلاقات قد ساءت بين الدولتين بعد وصول السلطان سليم الأول إلى حكم الدولة العثمانية لعدة أسباب منها وقوف السلطان قنصوه الغوري سلطان المماليك مع بعض الأمراء العثمانيين الفارين من وجه السلطان سليم الأول العثماني وعلى رأسهم الأمير أحمد أخو السلطان سليم الأول .

من أسباب توتر العلاقات كذلك كان الموقف السلبي للدولة المملوكية في وقوفها المعنوي مع الشاه الصفوي اسماعيل، وعدم التزامها الحياد بين العثمانيين والصفويين في الحروب الدائرة بينهما .

كما أجم هذا العداء، وقوع بعض الخلافات على الحدود بين الدولتين في طرسوس شمال الشام، حيث تناثرت في هذه المنطقة إمارات وقبائل تآرجحت في ولائها بين الدولتين العثمانية والمملوكية، فكان هذا التآرجح مبعث اضطراب في العلاقات بين الدولتين ومصدر نزاع مستمر .

أما عن السبب المباشر الذي شجع السلطان سليم الأول على الإقدام على هذه الخطوة، فكان ما ذكره الدكتور علي الصلابي في كتابه (الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط) من تفشي ظلم المماليك بين الناس ورغبة أهل الشام وعلماء مصر في التخلص من الدولة المملوكية والانضمام إلى الدولة العثمانية، ونقل عن الدكتور محمد حرب ترجمة وثيقة موجودة في الأرشيف العثماني في متحف طوب كابي في أستانبول برقم (١١٦٣٤)(٢٦)، وبين أن ترجمة الوثيقة من العثمانية إلى العربية كما يلي :

«يقدم جميع أهل حلب : علماء ووجهاء وأعيان وأشراف وأهال، بدون استثناء طاعتهم وولائهم - طواعية - لمولانا السلطان عز نصره - وبإذنه جميعاً، كتبنا هذه الورقة لترسل إلى الحضرة السلطانية العالية، أن جميع أهل حلب هم الموالون لكم، يطلبون من حضرة السلطان، عهد الأمان، وإذا تفضلتم بالتصريح فإننا نقبض على الشراكسة، ونسلمهم لكم أو نطردهم، وجميع أهل حلب مستعدون لمقابلتكم واستقبالكم بمجرد أن تضع أقدامكم في أرض عينتاب،

خَلَصْنَا أَيُّهَا السُّلْطَانُ مِنْ يَدِ الْحُكْمِ الشَّرْكَسِيِّ، أَحْمَنَا أَيْضًا مِنْ يَدِ الْكُفَّارِ، قَبْلَ حُضُورِ التَّرْكَمَانِ، وَلِيَعْلَمَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ أَنَّ الشَّرِيعَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ لَا تَأْخُذُ مَجْرَاهَا هُنَا وَهِيَ مَعْطَلَةٌ، وَأَنَّ الْمَمَالِيكَ إِذَا أُعْجِبَهُمْ أَيُّ شَيْءٍ لَيْسَ لَهُمْ يَسْتَوْلُونَ عَلَيْهِ، سِوَاءَ كَانَ هَذَا الشَّيْءُ مَالًا أَوْ نِسَاءً أَوْ عِيَالًا، فَالرَّحْمَةُ لَا تَأْخُذُهُمْ بِأَحَدٍ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ ظَالِمٌ، وَطَلَبُوا مِنَّا رِجَالًا مِنْ ثَلَاثَةِ بَيْوتٍ، فَلَمْ نَسْتَجِبْ لَطَلِبِهِمْ فَأَظْهَرُوا لَنَا الْعِدَاءَ، وَتَحَكَّمُوا فِينَا، وَنَرِيدُ قَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ التَّرْكَمَانُ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَيْنَا وَزِيرٌ مِنْ عِنْدِكُمْ أَيُّهَا السُّلْطَانُ صَاحِبَ الدَّوْلَةِ مَفُوضٌ بِمَنْحِ الْأَمَانِ لَنَا وَلِأَهْلِينَا وَلِعِيَالِنَا، أَرْسَلُوا لَنَا رِجَالًا حَائِزًا عَلَى ثِقَتِكُمْ، يَأْتِي سِرًّا وَيَلْتَقِي بِنَا وَيُعْطِينَا عَهْدَ الْأَمَانِ، حَتَّى تَطْمَئِنَّ قُلُوبُ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِينَ»

كما نقل عن عبد الله بن رضوان في كتابه (تاريخ مصر) (مخطوط رقم ٤٩٧١) بمكتبة بايزيد في استانبول، أن علماء مصر وهم نفس الشعب المصري وممثلوه يلتقون سرا بكل سفير عثماني يأتي إلى مصر، ويقصون عليه شكواهم الشريف، ويستنهضون عدالة السلطان العثماني لكي يأتي ويأخذ مصر، لقد كان علماء مصر يرسلون السلطان سليم الأول لكي يقدم إلى مصر على رأس جيشه ليستولي عليها ويطرده منها الجراكسة المماليك .

على أي حال يبدو أن أهل مصر والشام قد كرهوا حكم المماليك في أواخر عصرهم، فلم يعد المماليك تلك الدولة العادلة المجاهدة كما كانت زمن قطز وبيبرس، وتفشى الظلم وغابت العدالة

الاجتماعية، فتطلع أهل مصر والشام للخلاص منهم، وكان العثمانيون هم القوة الاسلامية الوحيدة القادرة على ذلك حينها .

اندفعت القوتان العثمانية والمملوكية في تسابق ليكون أيهما صاحب الضربة الأولى والمفاجئة، ودارت أولاً معركة مرج دابق في الشام والتي لم تستغرق إلا سويقات قليلة، وحقق فيها العثمانيون نصراً كبيراً على المماليك، وقتل السلطان قنصوه الغوري أثناء انسحاب قوات المماليك من المعركة، ويقال أنه وقع من على فرسه ودهس تحت أقدام خيل جنده، وبهذا دانت الشام بالولاء للسلطان سليم الأول العثماني، ودخل مدنها واحدة تلو الأخرى و أرسل إلى طومان باي نائب السلطان الغوري القتل في مصر وطلب منه أن يلتزم الطاعة للدولة العثمانية، إلا أن طومان باي سخر من رسول العثمانيين وأمر بقتله .

قرر السلطان سليم الأول الحرب والتحرك نحو مصر قاطعاً صحراء فلسطين وسيناء، في الوقت الذي ظن طومان باي أن العثمانيين لن يتقدموا إليه وأن الصحراء الشاسعة التي تفصل بينه وبينهم ستكون حائلاً أمام القوات العثمانية، إلا أن القدر ساعد العثمانيين، وهطلت الأمطار التي مهدت رمال الصحراء لخيول العثمانيين حتى وصلت إلى صحراء العباسية المعروفة بالريديانية، ودارت معركة جديدة بين المماليك والعثمانيين انتهت بهزيمة المماليك هزيمة ساحقة، ويكفي أن المماليك كانوا مازالوا يعتمدون على أساليب الحرب التقليدية وعلى سلاح الفروسية،

في الوقت الذي كان فيه جيش العثمانيين أكثر عددا وأحدث تسليحا وأوضح تنظيما وكان لفرق المشاة والمدفعية العثمانية دورا كبيرا في تحقيق الانتصار .

على أي حال، ترتب على هزيمة المماليك في مرج دابق ثم الريدانية على الترتيب، انتهاء دولتهم في مصر والشام، وسيطر سليم الأول على العالم العربي في جناحيه الآسيوي والإفريقي، وأعلن نفسه الحامي الوحيد للحرمين الشريفين ولجميع رعاياه في العالم الإسلامي، ودخلت مصر حقبة تاريخية جديدة وهي أنها أصبحت ولاية عثمانية .

شبراخيت ١٧٩٨م - امبابية ١٧٩٨م :

أصبحت مصر ولاية تابعة للدولة العثمانية كما ذكرنا منذ عام ١٥١٧م بعد هزيمة القوات المملوكية في معركة الريدانية، ولكن من سنن الدول أن تصاب بالضعف والتدهور إلى أن يتم زوالها ويحل محلها دولا جديدة، تسير على نفس خطواتها من حيث التأسيس ثم القوة والتوسع إلى أن يأتي دورها في الضعف والانحيار، وعلى هذا فقد أصيبت الدولة العثمانية بحالة من الضعف منذ القرن السابع عشر الميلادي، وهو ما جعل أنظار التنافس الاستعماري الإنجليزي الفرنسي تتجه إلى ولاياتها خاصة البعيدة عنها كمصر .

في ١٧٩٨م وصلت الحملة الفرنسية التي يقودها نابليون بونابرت إلى مصر وكانت الدولة العثمانية حينها لا تملك من القوة ما يمكنها من الدفاع عن مصر ضد الحملة الفرنسية، لذا لجأت إلى إقامة عدة تحالفات مع أعداء فرنسا الأوروبيون مثل الإنجليز والروس حتى تتمكن من إخراج الحملة من مصر، ورغم أنها نجحت في تحقيق ذلك بمساعدة حلفائها، إلا أن الحملة الفرنسية قد تركت في مصر أثارا بعيدة المدى والتأثير .

وقد دارت عدة معارك أثناء وجود الحملة الفرنسية في مصر لعل أشهرها معركتي شبراخيت ثم امبابة على الترتيب الزمني، وكانت الأطراف في المعركتين واحدة إلى حد ما، ففي شبراخيت كانت فرق المماليك بقيادة مراد بك تحاول التصدي للحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت، أما في معركة امبابة فكانت نفس الأطراف بالإضافة إلى اشتراك إبراهيم بك المملوكي إلى جوار مراد بك ضد الفرنسيين .

لما وصلت القوات الفرنسية إلى الإسكندرية لم تجد أي مقاومة عسكرية تذكر، اللهم إلا مقاومة الأهالي بزعامة حاكم الإسكندرية السيد محمد كريم، وبعد سيطرة الفرنسيين على الإسكندرية، تقدمت قوات الحملة في طريقها قاصدة القاهرة، ووقع أول لقاء عسكري بين المماليك والفرنسيين عند شبراخيت قرب البحيرة، وكان لقلة عدد المماليك وضعف تسليحهم وعدم قدرتهم على التنظيم دورا كبيرا في هزيمتهم في شبراخيت .

ترتب على الهزيمة في شبراخيت تقهقر القوات المملوكية بقيادة مراد بك صوب القاهرة للدفاع عنها، ورابط عند إمبابة، وفي تلك الأثناء انضمت إليه قوات جديدة بقيادة مملوك آخر هو إبراهيم بك، ولنفس الأسباب سألفة الذكر، تمت هزيمة المماليك مرة جديدة أمام الحملة الفرنسية، وترتب على هزيمتهم في إمبابة، فرار مراد بك إلى الصعيد ولكنه تزعم المقاومة في الصعيد ضد الفرنسيين لفترة، أما عن إبراهيم بك فقد حدثت مناوشات بينه وبين الفرنسيين عند الصالحية ثم هرب ومعه الوالي العثماني إلى الشام، وعلى هذا، وبعد هزيمة المماليك في إمبابة أصبحت القاهرة بدون أي حماية أو قوة عسكرية تدافع عنها، ودخل نابليون بونابرت قائد الحملة الفرنسية إلى القاهرة معلنا سيطرته عليها .

حروب محمد علي ١٨٠٥م : ١٨٤٨م :

يُعد محمد علي أحد أهم حكام مصر عبر تاريخها الممتد لأكثر من سبعة آلاف سنة، لما كان له من أعمال أثرت في تاريخ مصر بل والعالم بأسره، ولسنا في مجال عرض أعمال محمد علي في المجالات المختلفة، وإنما سنوجز أهم المعارك التي دارت في عصره .

وقد تولّى محمد علي حكم مصر كوالي عثماني عام ١٨٠٥م بعد ثورة للشعب المصري ضد الولاة العثمانيين وأمراء المماليك الذين أثقلوا كاهل المصريين بالضرائب، وتم اختياره بإرادة شعبية

كاملة بواسطة زعماء الشعب المصري في يوم ١٣ مايو عام ١٨٠٥م، إلا أن فرمان السلطان العثماني بولاية محمد علي على مصر لم يصدر إلا في يوليو ١٨٠٥م، ويبدو أن السلطان العثماني لم يكن يرغب في تولية محمد علي مصر، إلا أنه اضطر إلى ذلك بعد الضغط الشعبي عليه .

لما تولي محمد علي حكم مصر، تعرض لمحاولات عديدة لعزله من الحكم، كان أبرزها حملة فريزر الإنجليزية عام ١٨٠٧م، إلا أن محمد علي تخلص منها جميعا بفضل مساندة الشعب وزعمائه له، أما عن المعارك التي خاضها محمد علي فيمكن تقسيمها إلى قسمين : الأول وهي الحروب التي خاضها محمد علي بالجيش المصري بأمر من السلطان العثماني بموجب أن محمد علي واليا عثمانيا على مصر، أما القسم الثاني فهي الحروب التي خاضها محمد علي بناء على رغبته الشخصية ولتدعيم استقلاله بمصر ومنها ما كان ضد الدولة العثمانية نفسها، وسنلخص أهم الحروب التي خاضها محمد علي فيما يلي :

١- حملة فريزر ١٨٠٧م :

تعددت المحاولات الانجليزية لعزل محمد علي عن ولاية مصر لأن إنجلترا رأت أن وجود محمد علي في ولاية مصر يهدد مصالحها في المنطقة كلها، وانتهزت إنجلترا تدهور العلاقات بينها وبين

السلطان العثماني بسبب انحيازه إلى فرنسا، واتفقت مع روسيا على ضرب الدولة العثمانية في مصر واحتلال مصر وعزل محمد علي وتنصيب محمد بك الألفي تابعها المملوكي بدلا منه، فأرسلت حملة بقيادة فريزر في مارس ١٨٠٧ م .

نزلت الحملة إلى الإسكندرية واستولت عليها ثم توجهت إلى رشيد، وكان محمد علي في الصعيد يطارد بعض المماليك المتمردين عليه، فوقع عبء مقاومة الحملة على أهالي رشيد والحماد الذين قاوموا الحملة ببسالة عظيمة في شوارع رشيد والحماد وقتلوا الكثير من جنود الحملة وأسروا منهم عددا كبيرا .

أمام هذه المقاومة الباسلة من المصريين في رشيد والحماد، اضطر فريزر إلى التقهقر إلى الإسكندرية للاحتماء بها، وكان محمد علي قد علم بأمر الحملة وجاء مسرعا من الصعيد، وقام بحصار الإنجليز في الإسكندرية .

وبفضل المقاومة المصرية، ووقوع عدد كبير من القوات الانجليزية قتيل أو أسير، طلب فريزر الصلح والجلء عن الإسكندرية مقابل الإفراج عن الأسرى، وقد وافق محمد علي على طلب فريزر، ودخل محمد علي الإسكندرية ظافرا جانبا لثمار نصر لم يحزره، ولكن كان البطل الحقيقي لهذا الانتصار هو الأهالي في رشيد والحماد الذين صمدوا في وجه الحملة .

٢- الحروب الوهابية (الجزيرة العربية) ١٨١١م : ١٨١٩م :

كانت الحروب الوهابية في الجزيرة العربية هي أول الحروب للجيش المصري الذي كونه محمد علي خارج الأراضي المصرية، وكانت بأمر من السلطان العثماني للقضاء على حركة الإمام محمد بن عبد الوهاب، والتي كانت تُهدد نفوذ الدولة العثمانية في شبه الجزيرة العربية، فبالرغم من أن دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب كانت دعوة دينية في بدايتها لا علاقة لها بأمر السياسة، إلا أنه انحاز إلى آل سعود الساعين إلى تكوين دولة خاصة بهم في الجزيرة العربية، مما يهدد النفوذ العثماني صاحب السيادة على هذه الأراضي حينذاك، فأعطى السلطان أوامره إلى محمد علي بإرسال الحملات إلى الجزيرة العربية للقضاء على هذه الحركة، وكانت أولها الحملة التي أرسلها بقيادة ابنه طوسون، وقد نجح محمد علي في تحقيق مطالب السلطان العثماني، ولم يفوت محمد علي هذه الفرصة، فقد حقق لنفسه العديد من المكاسب منها أنه ومن خلال تحقيق الانتصارات في الجزيرة العربية قد وطد مركزه في مصر، وارتفع قدر محمد علي من حاكم تابع للسلطان إلى حاكم مستقل، كما أصبح لمصر وجودا سياسيا وعسكريا في شبه الجزيرة العربية حيث أسند السلطان إلى محمد علي مشيخة الحرم المكي ولابنه إبراهيم ولاية جدة .

وقد استغل محمد علي فرصة وجود الجيش المصري في شبه الجزيرة العربية وتوسع في الحجاز ليشمل نجد وعسير وجزء من اليمن ومن الخليج العربي، مما كان له أثر كبير في ظهور فكرة تكوين رابطة عربية يقودها محمد علي تقف في مواجهة الرابطة العثمانية في قادم الأيام، ويستطيع محمد علي أن يستند إليها ويعطي لنفسه شرعية الانفصال عن الدولة العثمانية والاستقلال بمصر وما حولها .

٣- حروب السودان ١٨٢٠ م : ١٨٢٢ م:

تعتبر حرب السودان أو فتح السودان أول حرب يخوضها محمد علي بإرادته الشخصية، وكانت أسبابها كافية ومقنعة لمحمد علي لخوضها، ففتح السودان يمكنه من ملاحقة المماليك الفارين من المذبحة التي أقامها لهم إلى دنقلة في السودان، ويجعله يسيطر على أراضي السودان الغنية بمناجم الذهب والماس وينمي التجارة مع السودان، بل وسيتمكن من تجنيد السودانيين في الجيش المصري، كما أننا لا نستطيع أن نغفل أهمية السودان للمجال الحيوي المصري، فالسودان امتدادا طبيعيا لمصر من ناحية الجنوب .

تمكن محمد علي من تحقيق غرضه من السودان، وعمل على تنظيم الحكم والإدارة بها فعين عليها حاكما عاما برتبة حكمدار، كما قسّم السودان إداريا إلى مديريات وأقسام على نفس

الأسلوب المتبع في مصر، وقام ببناء عدة مدن جديدة مثل الخرطوم العاصمة وفامكه وكسلا، كما أن فتح السودان مكن محمد علي من اكتشاف منابع النيل وأواسط أفريقيا .

٤- حروب اليونان (المورة) ١٨٢١ م : ١٨٢٨ م :

كانت حروب اليونان بأمر من السلطان العثماني، حيث كانت بلاد اليونان وأوروبا الشرقية جزءاً من الدولة العثمانية منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وقد تطلع اليونانيين في جزر المورة إلى الانفصال عن الدولة العثمانية وإعلان استقلالهم، وقد لقوا معارضة كبيرة من العديد من الدول الأوروبية التي كانت ترغب في تفتيت الدولة العثمانية .

على أي حال، خاض محمد علي حروب اليونان بناء على أمر السلطان العثماني، وامتطعا إلى تحقيق المزيد من المكاسب الشخصية له، وحقق محمد علي عدة انتصارات في البداية إلا أن الدول الأوروبية تحالفت ضده وساعدت ثوار المورة، وظهر ذلك جليا في معركة نوارين (نفاين) البحرية عام ١٨٢٧م والتي تحطم فيها أسطول محمد علي .

أدرك محمد علي أنه مهزوم أمام الدول الأوروبية لا محالة، فانتهاز فرصة طلب الدول الأوروبية للتفاوض معه وقبل المفاوضات التي انتهت بموافقتهم على إتمام محمد علي انسحاب قواته من

اليونان، ورغم ذلك فقد حقق محمد علي من حروب اليونان مكاسب عديدة جعلت كثير من المؤرخين يذهب إلى أن النتائج النهائية للحرب كانت في صالح محمد علي، حيث حصل محمد علي على جزيرة كريت كمكافأة من السلطان العثماني على مجهوداته وضمها إلى ولاية مصر، كما أن الجيش المصري اكتسب خبرات ميدانية كبيرة، والأهم من ذلك النتائج السياسية التي رفعت من مكانة مصر الدولية، فتفاوض الدول الأوروبية بشكل مباشر مع محمد علي دون الرجوع إلى السلطان العثماني رفع من مكانة مصر الدولية، وجعل محمد علي يفكر بشكل كبير في الانفصال عن الدولة العثمانية، مما سيؤدي إلى توتر العلاقة بين محمد علي والسلطان العثماني في قادم الأحداث .

٥- حروب الشام ١٨٣١ م : ١٨٤٠ م :

الدارس لتاريخ مصر والعالم الإسلامي، يعي أهمية الشام لمصر عبر العصور، فهي تمثل البوابة الشمالية الشرقية لمصر، ومعظم الغزوات أتت إلى مصر عبرها، وقد فطن محمد علي إلى تلك النقاط وزاد عليها أن الشام إذا توحد مع مصر بالإضافة إلى الجزيرة العربية سيكون محمد علي قد حقق الرابطة العربية التي تستطيع مواجهة الرابطة العثمانية ومنافستها بكل قوة .

تعددت محاولات محمد علي لحكم الشام، وكانت في بدايتها محاولات دبلوماسية منها أنه فكر في عام ١٨١٠م مخاطبة السلطان العثماني لكي يتنازل له عن الشام مقابل مبلغ من المال، إلا أن الفكرة لم تتم، وعاودت الفكرة محمد علي أثناء الحروب الوهابية، وطلب من السلطان أن يسند إليه حكم الشام بدعوى أهميتها في إخضاع الوهابيين ولكن السلطان رفض .

تجددت مطالب محمد علي للسلطان بإسناد ولاية الشام إليه أثناء حروب اليونان بحجة تعويض خسائره في هذه الحرب إلا أن السلطان كان قد منحه حكم جزيرة كريت .

فلم يعد أمام محمد علي إذا أراد حكم الشام إلا الحرب ضد الدولة العثمانية وخاصة بعد استيلاء محمد علي على الجزيرة العربية والسودان ورغبته في إتمام الوحدة العربية بضم الشام، فسوريا تقوي الجبهة العربية وتمثل المجال الحيوي الشمالي الشرقي لمصر .

في أكتوبر ١٨٣١م أعلن محمد علي الزحف إلى الأراضي الشامية بحجة إرجاع الفلاحين المصريين الهاربين إلى الشام تخلصاً من الضرائب والخدمة العسكرية، وأن والي عكا رفض الاستجابة لمطالب محمد علي بإعادة هؤلاء الفلاحين باعتبارهم رعايا عثمانيين يحق لهم الاستقرار في أي أرض تابعة للدولة العثمانية .

نجحت القوات المصرية في تحقيق عدد من الانتصارات ضد القوات العثمانية، ودخلت عكا ودمشق وحمص، بل وتخطت القوات المصرية الشام ودخلت إلى أراضي الأناضول، وتمركزت في أدنة، ويبدو أن محمد علي كان يخطط للزحف إلى الأستانة .

أثارت انتصارات محمد علي على القوات العثمانية، الدول الأوروبية الكبرى، والتي رأت أن محمد علي أصبح يمثل خطرا على التوازن الدولي، فقد أدركت الدول الأوروبية أن محمد علي إذا استمر في تحقيق انتصاراته وحل محل الدولة العثمانية يؤدي ذلك إلى اختلال ميزان القوى في العالم، فاجبروا محمد علي على توقيع صلح كوتاهية ١٨٣٣م مع السلطان العثماني والذي نص على بسط نفوذ محمد علي على الشام وأدنة وتأييد سلطانه على كريت والجزيرة العربية والحجاز، وبهذا خرج محمد علي مستفيدا من تلك الحرب .

لم ينهي صلح كوتاهية الحرب تماما بين الطرفين، ويبدو وكأنه كان هدنة مؤقتة، فسرعان ما وقع السلطان العثماني اتفاقية سرية مع روسيا عرفت باسم (خنكار اسكله سي) في ١٨٣٣م وهي عبارة عن معاهدة هجومية دفاعية باطنها موجه إلى محمد علي، وعاودت القوات العثمانية الهجوم على الجيش المصري في الشام، ودارت معركة نزيب (نصيبين) ١٨٣٩م على الحدود السورية التركية شمالي حلب، إلا أن الجيش المصري حقق انتصار كاسح على القوات العثمانية لدرجة أن قائد الأسطول

العثماني قام بتسليم الأسطول كاملا إلى محمد علي دون قتال .
تدخلت الدول الأوروبية مرة جديدة ضد محمد علي، وأجبرته
على قبول تسوية جديدة عرفت بمعاهدة لندن ١٨٤٠م، والتي كان
من نصوصها خضوع محمد علي للسلطان العثماني، وإعادة الشام
والجزيرة العربية للسلطان العثماني، واضطر محمد علي أن
يقبلها بسبب تهديد الدول الأوروبية له .

على أي حال، كانت حروب الشام آخر المعارك الفاصلة في
عصر محمد علي .

حرب الحبشة ١٨٧٥ م :

حدثت حروب الحبشة في عصر الخديو إسماعيل حفيد محمد
علي باشا، وكان الخديو إسماعيل يتطلع إلى بسط نفوذ مصر
في الجنوب والجنوب الشرقي على ساحل البحر الأحمر لتحقيق
عدة أهداف، منها محاربة تجارة الرقيق المنتشرة في ذلك الوقت،
والسيطرة على مياه النيل ومنابعه في الجنوب، وقد استطاع الخديو
إسماعيل من خلال توسعته من بسط السيطرة المصرية على
فاشودة ومصوع وسواكن وإقليم خط الاستواء وأوغندا وإقليم
بحر الغزال ودارفور وإقليم البوغوس وزيلع وبربرة وهرر وسواحل
الصومال الشمالية حتى كساميو .

وقد أدت توسعات إسماعيل إلى مواجهة حتمية وأكيدة مع الحبشة، وقام الخديو إسماعيل بفرض الحصار على الحبشة عام ١٨٧٥م ودخل معها في حرب شرسة انتهت بهزيمة القوات المصرية بالإضافة إلى خسائر اقتصادية وصلت إلى ثلاثة ملايين جنيه، وهو مبلغ ضخم من المال حينذاك، خاصة وأن مصر كانت تعاني في عصر الخديو إسماعيل من أزمة مالية طاحنة .

كما أثارت توسعات الخديو إسماعيل في أفريقيا الدول الإستعمارية الكبرى، والتي كانت تسعى إلى التوسع في تلك المناطق، ورأت ان إسماعيل يعيد إلى الأذهان خطر جده محمد علي، لذا عملت الدول الأوروبية على التدخل بحجة الديون التي كانت لها عند مصر، لإعاقة نمو مصر ومنع ظهور محمد علي آخر، وقد نجحت في تحقيق ذلك .

الاحتلال الانجليزي عام ١٨٨٢م:

تطلعت إنجلترا منذ العصور الوسطى إلى احتلال مصر، وتعددت محاولاتها إلا أنها فشلت كلها، حتى جاء عام ١٨٨٢م واستطاعت تحقيق هدفها الأول باحتلال مصر وإقامة قواعد عسكرية لها في وادي النيل وسواحل البحرين الأحمر والمتوسط ؛ لتحقيق السيطرة على منطقة الشرق الأوسط، وحماية طرق مواصلاتها إلى مستعمراتها في الهند والتي اعتمد عليها الاقتصاد

الإنجليزي لعشرات السنين وكانت المغذي الأول والرئيس للخزائن الإنجليزية .

استغلت إنجلترا غرق مصر في الديون منذ عهدي سعيد باشا والخديو إسماعيل، وجعلت هذه الديون ستارا لها لتحقيق مآربها في التدخل السافر في الشؤون المصرية، وما إن تحركت الحركة الوطنية في عهد الخديو توفيق اعتراضا على ماوصلت إليه الأمور من تدخل أجنبي في الشؤون المصرية، إلا وكانت إنجلترا تظهر نفسها الحامية لشرعية الخديو توفيق من محاولات الانقلاب عليه كما تزعم .

فقد تزعم العسكريون الحركة الوطنية في هذه الفترة، بزعامة الأميرالاي أحمد عرابي، ومن الجدير بالذكر أن مطالب الضباط المصريين التي تقدموا بها للخديو توفيق وحكومته كانت في بادئ الأمر مطالب فئوية متعلقة بامتيازات حرموا منها، إلا أنهم سرعان ما التحموا بالمدنيين ووجدوا مطالبهم، وهذا ما أزعج الخديو توفيق المدعوم من الإنجليز .

على أي حال، تطورت الأحداث إلى أن نزلت القوات الإنجليزية شواطئ الإسكندرية، وبدأت المقاومة ضدها والتي تمثلت في عدة معارك بين القوات المصرية الموالية لأحمد عرابي مدعومة بالمقاومة الشعبية، ضد قوات الاحتلال الإنجليزي، وكانت النتيجة النهائية لهذه المعارك في صالح قوات الاحتلال والتي تمكنت بعدها من

دخول القاهرة، إلا أن البطولات المصرية خلال هذه المعارك الفاصلة لا يمكن أن نتجاوزها، وسنوجز أهم معركتين بشئ من التفصيل وهما معركة كفر الدوار، ثم معركة التل الكبير .

١- معركة كفر الدوار يوليو ١٨٨٢ :

في ١١ يوليو ١٨٨٢م، بدأ الأسطول الإنجليزي في ضرب مدينة الإسكندرية، رغم اجتماع سفراء الدول الكبرى في الأستانة وتعهدهم بعدم تدخل أي منهم في المسألة المصرية بشكل منفرد، إلا أن المنسوب البريطاني كان قد أصر على إضافة عبارة «إلا إذا حدث ما يؤدي إلى ذلك....» ومن هنا ذهب هذا الميثاق والذي عُرف بميثاق النزاهة سدى، إذ أن بريطانيا كانت قد أعدت عدتها لضرب الاسكندرية واحتلال مصر والتدخل بشكل منفرد .

استند الإنجليز إلى أن القوات المصرية تقوم بتحسين الإسكندرية وتعتمزم غلق الميناء وحصار البوارج الإنجليزية الراسية فيه، بالإضافة إلى استغلال ما وقع في الإسكندرية من شجار بين المصريين والأجانب والذي يبدو أنه كان صنيعة الإنجليز، وأدعت أن القوات المصرية بقيادة أحمد عرابي غير قادرة على تأمين الأجانب .

على أي حال خلقت إنجلترا حالة الضرورة التي تبرر التدخل العسكري في مصر استنادا إلى عبارة «إلا إذا حدث ما يؤدي إلى ذلك....»، وبدأت ضرب الإسكندرية، واشتعلت النيران في مباني

المدينة، ونزلت القوات الإنجليزية الإسكندرية واضطرب الموقف بشكل عام وتم هزيمة الجيش المصري .

أعلن الإنجليز الأحكام العرفية، وحاصروا قصر الخديو توفيق بها، ويبدو أن الخديو قد نزل قصره بالإسكندرية انتظاراً للقوات الإنجليزية التي ستخلصه من ثورة المصريين بقيادة أحمد عرابي كما تمنى، وقد نال ما تمناه .

كلف الخديو القوات الإنجليزية بالمحافظة على النظام بالإسكندرية، وبذلك فقد ربط مصيره بانتصارهم، وكان عرابي بعد هزيمة القوات المصرية في الإسكندرية قد انسحب إلى كفر الدوار مع وحدات جيشه في محاولة لإقامة خط دفاع ثان بعد سقوط الإسكندرية في يد الإنجليز .

عمل عرابي على تحصين كفر الدوار ليقطع الطريق على القوات الإنجليزية الساعية للوصول إلى القاهرة، وقد وصلت بعض الإمدادات البشرية المتمثلة في رجال وشباب العائلات والقبائل من كل أنحاء مصر، ونجح عرابي في إقامة الحواجز والمتاريس، وأحسن توزيع قواته في كفر الدوار .

وفي نفس الوقت الذي يقوم فيه عرابي بتعزيز تحصيناته في كفر الدوار وصلت رسالته رسالة من الخديو توفيق يطلب فيها من عرابي الكف عن الاستعدادات الحربية، ويأمره بالحضور إلى قصر رأس التين في الإسكندرية والخضوع لأوامره وأوامر القوات

الإنجليزية، إلا أن عرابي رفض طلب الخديو، بل ووجه إليه تهمة الخيانة العظمى، وطلب من الأعيان والعلماء النظر في أمر ولايته على البلاد .

بالفعل تم تشكيل مجلس عرّيف لإدارة شئون البلاد بعيدا عن سلطة الخديو، وقابل الخديو هذا الأمر باصدار قرار بعزل عرابي من وزارة الحربية لأنه لم يمثل إلى أوامره ولم يتوقف عن التحصينات والاستعدادات الحربية في كفر الدوار، إلا أن المجلس العرّيف قرر بقاء عرابي في منصبه، وترتب على ذلك كسب عرابي تأييدا شعبيا جارفا ولقبوه بحامي حمى الديار المصرية، معتبرين أن بقاء الخديو في الإسكندرية بعد احتلالها يعد تواطؤا مع القوات الإنجليزية المحتلة .

أصدر الخديو منشورا يحذر فيه المصريين من الانضمام إلى عرابي باعتباره مسئولا عما وقع من حوادث، إلا أن رد فعل المصريين كان التمسك بالمقاومة تحت قيادة أحمد عرابي، فتقدمت القوات الإنجليزية صوب كفر الدوار، إلا أن القوات المصرية نجحت في صدها وهزيمتها، وأدرك الإنجليز صعوبة اختراق تلك التحصينات والمرور إلى القاهرة عبر كفر الدوار، فعاودت القوات الإنجليزية إلى الاسكندرية باحثّة عن طريق آخر للوصول إلى العاصمة، وبذلك فقد حققت القوات المصرية نصرا عسكريا ومعنويا كبيرا على قوات الاحتلال الإنجليزي، لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن .

٢- معركة التل الكبير ١٨٨٢ م :

تُعتبر معركة التل الكبير واحدة من أهم المعارك الفاصلة في تاريخ الأمة المصرية، إذ كانت هزيمة القوات المصرية بها سببا مباشرا لتمكن الإحتلال الإنجليزي من دخول القاهرة وبداية الإحتلال البريطاني لمصر والذي استمر لما يقرب من أربعة وسبعون عاما .

وقد ذكرنا أن القوات الانجليزية فشلت في تخطي تحصينات عرابي عند كفر الدوار، لذا استغلت المناوشات الكلامية بين عرابي والخديو توفيق، وأسرعت تبحث عن طريق آخر يمكنها من الوصول إلى القاهرة، ويبدو أن إحتلال الإسكندرية كان عملية تمويهية قصد بها الإنجليز إخفاء الغرض الأساسي للغزو من ناحية، ومن ناحية أخرى تشتيت قوات الجيش المصري في أكثر من جبهة، وبالفعل عمل الإنجليز على الحركة باتجاه شمال قناة السويس والعمل على اختراقها بأسطولهم، وقد فطن عرابي إلى ما يدور في أذهان الإنجليز، فأسرع إلى القناة بنية تعطيل الملاحة بها وردم مدخلها الشمالي ليقطع الطريق على الأسطول الإنجليزي، إلا أن إدارة شركة قناة السويس، وكانت إدارة الشركة للفرنسيين حينئذ، طمأنت عرابي بأنه لن يسمح للبوارج الحربية أي كان نوعها بالدخول إلى القناة .

عاد عرابي بقواته إلى التل الكبير بالقرب من محافظة الشرقية، وعمل على الاستعداد للمواجهة الأكيدة مع القوات الإنجليزية،

إلا أن إدارة شركة قناة السويس خالفت عهدا لعرابي، وسمحت للبورج الحربية الإنجليزية بالمرور في قناة السويس، وكانت المفاجأة للعربيين بوصول الإنجليز إلى الاسماعيلية، وبدأوا في إقامة معسكراتهم بها .

دارت مناوشات بين العربيين والإنجليز عند منطقة تعرف بالقصاصين والتي تبعد عن التل الكبير بحوالي خمسة عشر كم، وقد استطاعت القوات المصرية تكبيد القوات الإنجليزية خسائر كبيرة، إلا أن النتيجة النهائية لتلك المناوشات كانت لصالح الإنجليز .

بدأ عرابي يستعد للمواجهة الفاصلة في التل الكبير، إلا أن الظروف المحيطة كانت كلها ضد المصلحة المصرية، فقد قام السلطان العثماني (كانت مصر لاتزال ولاية عثمانية) بإيعاز من الخديو والإنجليز بإصدار فرمان بعصيان أحمد عرابي وإظهار عرابي ومن معه بمثابة حركة متمردة خارجة على الشرعية في مصر وقد عمق هذا فرمان الانقسام في صفوف القوات المصرية والتي انقسمت بين فريق مؤيد لعرابي، وفريق آخر مؤيد للخديو، وإظهار الإنجليز بمظهر حُماة سلطة الخديو الشرعية .

كذلك كان هناك فريق كبير من الحركة الوطنية تختلف أهدافه عن أهداف أحمد عرابي، من حيث بقاء الخديو توفيق في السلطة أو عزله كما كان يريد عرابي، فكان منهم من يريد

التخلص من التدخل الأجنبي ولا يريد في الوقت نفسه تحدي سلطة الخديو باعتباره ولي الأمر الفعلي، وكان من شأن هذا الخلط تفتيت وحدة الحركة الوطنية .

كما كان لوجود بعض العناصر الانهزامية في صفوف الوطنيين أثرا واضحا على نتيجة المعركة، حيث كانت هذه العناصر ترى الانصياع لرغبات الخديو والإنجليز وإيقاف الثورة، ووصل الأمر بهم إلى الاقتناع بطلب الإنجليز مغادرة عرابي البلاد .

لا نستطيع أن نغفل كذلك أن المشكلة الأساسية التي واجهت العرابيين هي الاعتماد المبالغ فيه على الصراعات الأوروبية، والظن بأنها يمكن أن تحول دون تحقيق أهداف الإنجليز، ويبدو أن عرابي حتى آخر لحظة كان يشك في أن بوارج الإنجليز ستضرب حصون الاسكندرية حقا، إلا أن ذلك كان قصر نظر منه، وعدم فهم منه لطبيعة التناقضات بين الإمبريالية الأوروبية .

دارت المعركة في التل الكبير بين القوات المصرية المهزومة قبل أن تبدأ المعركة، وبين قوات الاحتلال الإنجليزي، وظهر جليا عدم تكافؤ القوى العسكرية بين الطرفين، والتفوق الواضح للقوات الإنجليزية من حيث التسليح، فبينما كان عدد الحصون في سنة ١٨٨٢م كانت ١٥ حصنا تضم ٣١٨ مدفعا، وبينما كانت جملة وزن المدافع في الحصون المصرية ٣١٨ طنا فان وزن مدافع الأسطول قد وصل إلى ١٥٢٥ طنا، كذلك فإن جملة العيار بالبوصات

كانت ٣٥٩ بوصة مقابل ٧٧٩ بوصة لمدافع الأسطول . (١٦)

على أي حال، اجتمعت كل هذه العوامل وأدت إلى هزيمة القوات المصرية في التل الكبير، ودخلت القوات الإنجليزية إلى القاهرة في ١٤ سبتمبر ١٨٨٢م، وبرفقتهم الخديو توفيق، واستعرضوا قوتهم في ساحة ميدان عابدين .

ورغم الهزيمة إلا أن المعركة لم تخل من البطولات التي اعتدنا على أبناء مصر أن يقدموها دون البحث عن مقابل، فقد تناثرت أشلاء الجنود والضباط المصريين مثل محمد عبيد وغيره من الأبطال وهم يحاولون وقف هذا الزحف الاستعماري، فقد ذكرهم عرابي وهو في طريقه إلى منفاه في جزيرة سيلان بعد الهزيمة قائلاً « محمد عبيد، تناثرت جثته في ثرى التل الكبير وهو يحاول إيقاف هذه الخيانة، ما كان أشجع ذلك الضابط الفلاح الطيب، في أول فبراير أنقذنا من السجن في قصر النيل، وبعدها بعام ونصف، وهب حياته لمصر، لا قبس له ولا قبر لعشرة آلاف من أولاد مصر قتلتهم الخيانة في الصحراء الشرقية، أكوام من العظم، لا اسم لأصحابها، وغدا تتحرر الأرض، فهل يذكرونهم ولو بمجرد شاهد رخامي صغير » (١٧)

١٦ - (صلاح عيسى - الثورة العربية - ص ٤١٢)

١٧ - (صلاح عيسى - الثورة العربية - ص ٤٥١)

وأنا أقول لعرابي، نعم تذكرناكم وسنظل نذكركم، ولا ننسى ما قدمه آباءنا وأجدادنا من أجل الحفاظ على هذا الثرى الطيب، وسنبذل كل ما نملك للدفاع عنه بإذن الله .

على أي حال، وبالهزيمة في التل الكبير، بدأت مصر مرحلة جديدة من المراحل العصيبة التي مرت عليها، وهي فترة الاحتلال الإنجليزي .

الحرب العالمية الأولى وأثارها على مصر ١٩١٤م: ١٩١٨م:

لم تكن مصر طرفا رئيسا في الحرب العالمية الأولى، إلا أنها كانت كغيرها من الدول المستعمرة التي تم اقحامها في حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل، فكان للحرب آثارا جلية على السياسة المصرية، ولعبت دورا كبيرا في تغير المناخ السياسي وتعميق مشاعر الكراهية للمصريين ضد الاحتلال البريطاني .

قامت الحرب العالمية في عام ١٩١٤م بين معسكرين كبيرين، الأول يضم تحالف ألمانيا والدولة العثمانية (تركيا) وحلفائهما وعرفوا باسم دول الوسط، والثاني يضم إنجلترا وفرنسا وحلفائهما وعرفوا باسم دول الحلفاء، ولم تخرج أسباب هذه الحرب عن كونها تنافسا استعماريًا بين الدول الأوروبية الكبرى واضطرت الدولة العثمانية إلى دخوله في محاولة منها للحفاظ على ما تبقى من امبراطوريتها، إلا أنها لم تنجح في ذلك .

أما عن آثار الحرب العالمية الأولى على مصر فتتلخص في أن مصر قبيل اندلاع الحرب كانت ولاية عثمانية، ومع دعوات الدولة العثمانية إلى الجهاد المقدس ضد الحلفاء، خشيت إنجلترا من أن تؤثر تلك الدعوة على المناطق الواقعة تحت سيطرتها وبها أغلبية مسلمة، ومنها مصر، لذا عملت على اتخاذ مجموعة من الإجراءات السريعة مع الساعات الأولى للحرب، لتضمن بتلك الإجراءات خضوع تلك المناطق لسيطرتها التامة وقطع الصلة بين تلك المناطق وبين الدولة العثمانية، وكان على رأسها مصر .

فقد قامت إنجلترا بإعلان الحماية البريطانية على مصر والذي يعني خضوع مصر المطلق لسلطات الاحتلال البريطاني وقطع الصلة نهائيا بين مصر وبين الدولة العثمانية التي تمثل دولة الخلافة آنذاك، كما قامت بعزل الخديو عباس حلمي الثاني والذي يمثل السلطة الشرعية في مصر قبيل اندلاع الحرب وعينت عمه حسين كامل بدلا منه، بل ومنحته لقب سلطان ليكون لقباً منافساً للقب السلطان العثماني .

قامت إنجلترا بتجنيد المصريين قسراً في الخطوط الخلفية للحرب، وتشير بعض المصادر إلى أن عدد من جنده إنجترا من المصريين إبان الحرب العالمية الأولى قد بلغ ما يقرب من مليون مصري، وعملت كذلك على مصادرة مواشي الفلاحين ومحاصيلهم بأبخس الأثمان لصالح مجهوداتها الحربية .

فرضت إنجلترا الأحكام العرفية على البلاد، وفرضت الرقابة على الصحف المصرية ومنعت اجتماعات الجمعية التشريعية، والتي كانت تمثل الهيئة النيابية في مصر قبيل الحرب العالمية الأولى .

وقد ترتب على كل هذه الاجراءات التعسفية لإنجلترا ارتفاع أسعار الحبوب الغذائية والمنسوجات والوقود وأجور المواصلات دون أن يصاحبها ارتفاع مماثل في الأجور والمرتبات .

انتهت الحرب العالمية الأولى بانتصار دول الحلفاء، إلا أن معاناة الشعب المصري من بطش الاحتلال الإنجليزي لم تنتهي .

الحرب العالمية الثانية وأثارها على مصر ١٩٣٩م : ١٩٤٥م :

وقعت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م ضمن التنافس الاستعماري بين الدول الأوروبية، ولم تختلف أسبابها الخفية كثيرا عن أسباب الحرب العالمية الأولى، وحتى أطرافها، فقد دارت بين معسكرين الأول بقيادة إنجلترا وفرنسا المعروفين بالحلفاء، والثاني بقيادة ألمانيا وإيطاليا وعرفوا بدول المحور، ورغم حصول مصر على استقلال شكلي عن بريطانيا بموجب تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م، إلا أن القوات الإنجليزية لم تغادر الأراضي المصرية، وخاصة منطقة قناة السويس بموجب معاهدة التحالف والصداقة التي وقعتها مصر مع بريطانيا عام ١٩٣٦م، كما أن إيطاليا وهي دولة

رئيسة في التحالف المعادي لإنجلترا أثناء الحرب كانت تحتل الأراضي الليبية، وعلى ذلك دارت عدة معارك بين قوات الحلفاء وقوات المحور على الحدود المصرية الليبية في غرب مصر .

بنى الإنجليز خطتهم العسكرية على أساس استدراج القوات الإيطالية الألمانية إلى مرسى مطروح، وكان للجيش المصري في ذلك الحين وحدات مدفعية مضادة للطائرات، كما وزعت وحدات من سلاح الحدود المصري فيما بين السلوم وسيوة للقيام بالدوريات على طول الحدود .

يبدو أن بريطانيا خشيت من اندلاع ثورة مصرية ضدها في الوقت الذي تكون مشغولة فيه غربا ضد الإيطاليين، خاصة وإن شاركت بعض العناصر المسلحة من الجيش المصري في تلك الثورة، لذا عملت بريطانيا على إشراك القوات المصرية في أعمال حربية أو توزيعها في مناطق نائية لشغلها عن الاشتراك في أعمال عدوانية ضد القوات البريطانية في الداخل المصري .

دارت عدة معارك بين الإنجليز والإيطاليين في الجبهة الغربية لمصر، كان أشهرها في منطقة العلمين، حقق فيها الإنجليز نصر صعبا على القوات المشتركة الإيطالية الألمانية بقيادة روميل الذي تقهقرت قواته أمام قوات الإنجليز .

كان الجيش المصري خلال هذه الفترة لا يمثل أكثر من جيشا دفاعيا، يعمل على الدفاع عن مصالح بريطانيا في المنطقة،

بموجب المعاهدة التي وقعت بين الحكومتين المصرية والبريطانية عام ١٩٣٦م، وكما يذكر اللواء عبد المنعم خليل والذي خدم في أحد كتائب الخدمات العامة المصرية « ولما انتهت الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م لم يكن للجيش المصري نصيب يذكر من خبرة الحرب أو التدريب القتالي، ولكنه كان له نصيب كبير في الخضوع لتعليمات وأوامر القيادة البريطانية الاستعمارية لخدمة مصالحها »

على أي حال انتهت الحرب بانتصار جديد لانجلترا وحلفائها، أما مصر لم تجن من هذا الانتصار إلا ملايين الألغام الأرضية التي مازالت مدفونة في رمال الصحراء الغربية .

حرب فلسطين ١٩٤٨ م :

حرب فلسطين هي الحرب الرسمية الأولى التي تخوضها الدول العربية ضد الكيان الصهيوني الذي يدعى إسرائيل، أما ما سبقها فلم يكن إلا مجموعة من حركات المقاومة الغير نظامية ضد الصهيونية، والصهيونية باختصار شديد هي حركة سياسية أسسها صحفي يهودي في لندن تدعو إلى إقامة وطن قومي لليهود على أرض فلسطين العربية، فلم يعرف لليهود أرض بعينها يعيشون عليها، ورغم أنهم كانوا شتات في الأرض إلا أنهم لم يعترفوا يوما بفكرة القومية بالنسبة للبلاد التي كانوا يعيشون فيها، بل

تطلعوا دائماً إلى إقامة دولة لهم تجمع اليهود من كل مكان، وقد ساعدتهم الدول الاستعمارية خاصة بريطانيا والتي كانت تستعمر أرض فلسطين ولها حق الانتداب على أراضيها منذ عام ١٩٢٠م، حتى أصبح العرب أمام أمر واقع يتمثل في وجود مئات الألوف من اليهود القادمين من كل أنحاء العالم وخاصة دول أوروبا الشرقية إلى أراضي فلسطين العربية، وفي يوم ١٥ مايو ١٩٤٨م، أعلن اليهود قيام دولتهم المزعومة على جزء من أرض فلسطين اقتطعته لها الدول الاستعمارية بموجب قرار للأمم المتحدة عام ١٩٤٧م عرف بقرار التقسيم .

على أي حال كانت المسئولية بحكم العروبة واللغة والدين وحتى الانسانية تحتم على الدول العربية التدخل السريع لمحاولة الوقوف ضد هذه الاجراءات، وفي رأبي أن هذا التدخل قد تأخر لأكثر من ثلاثين عاما، إلا أن مبررنا الوحيد لهذا التأخر هو أن الدول العربية وخاصة مصر لم تكن تمتلك قرارها إذ كان جلها قابع في براثن الاستعمار .

في ليلة ١٥ مايو ١٩٤٨م، أصدر مجلس الوزراء المصري البلاغ الرسمي التالي «صدرت التعليمات إلى قوات من الجيش المصري بدخول فلسطين لإعادة الأمن والنظام فيها، ولايقاف المذابح التي تقترفها العصابات الإرهابية الصهيونية ضد العرب وضد الإنسانية»، وكان هذا البلاغ الحكومي الرسمي إعلانا للحرب ضد الصهيونية .

كان لليهود تجارب حربية ميدانية قوية، لاسيما فترة الحرب العالمية الثانية إذ قاتلوا إلى جوار الحلفاء، وكسبوا خبرات وروح عسكرية كبيرة، أما الجيوش العربية فلم يكن جنودها بنفس الكفاءة القتالية التي عليها اليهود ولم يتدربوا على حمل السلاح بشكل كاف، وإنما اعتمدوا فقط على حماسهم وشجاعتهم، كما أن إنجلترا أنهت انتدابها على فلسطين وقررت الانسحاب منها قبل يوم واحد فقط من إعلان دولة إسرائيل وقد انسحبت بأسلوب يسمح لليهود بالاستيلاء على مناطق لها أهميتها في الحرب القادمة .

اجتازت القوات المصرية الحدود المصرية الفلسطينية بهدف الوصول إلى غزة بأسرع ما يمكن، وحققت انتصارات متتالية على الجبهة المكلفة بها، حتى وصلت طلائع القوات المصرية إلى أسدود فأصبحت على مسافة أقل من ثلاثين ميلا من تل الربيع (تل أبيب)، ومن هذه الانتصارات كان الانتصار في معركة مستوطنة نيتسالييم ولكن الغريب في الأمر أن القوات المصرية بعد أن استطاعت طرد عصابات الصهاينة منها، تركتها دون حماية، فعاد الصهاينة احتلالها، وكان هناك موقف مشابه دون مبرر من الملك عبدالله ملك الأردن حينئذ عندما أصدر أوامره إلى قائد قواته في فلسطين بسحب القوات الأردنية من منطقتي اللد والرملة، وسمح للقوات الإسرائيلية بدخولها .^(١٨)

١٨ - (لواء عبد المنعم خليل - حروب مصر المعاصرة - ص ٣٢)

فهل كان للأنظمة العربية دور في ضياع فلسطين ؟ بكل وضوح نعم، ليس بدافع الخيانة ربما، ولكن خضوعا لرغبات الدول الاستعمارية التي كانت تتحكم في عروش ملوك العرب حينها وخشية منهم على استبدالهم، إلا أن الحركات الوطنية في البلاد العربية لم ترحمهم، ومالبت حرب فلسطين أن انتهت بهزيمة العرب إلا وبدأت الحركات التحررية من تلك الأنظمة والدول الاستعمارية معا تبذل قصارى جهدها لنيل الاستقلال التام .

لم تكن القوات المصرية هي الوحيدة التي تقاتل في فلسطين، فقد اشتركت جيوش وفرق عسكرية من دول عربية عدة منها سوريا ولبنان والأردن والعراق، بالإضافة إلى الفرق السودانية التي كانت محسوبة على الجيش المصري، ورغم ذلك وجدنا الجيوش العربية تخرج مهزومة من حرب فلسطين لأسباب عدة استبعد منها ما يُشاع عن صفقة الأسلحة الفاسدة، فلم تكن القوات العربية على نفس كفاءة وتسليح القوات الصهيونية رغم التفوق العددي للعرب، كما أن موقف الدول الكبرى المنحاز لإسرائيل سياسيا واقتصاديا وعسكريا والتغاضي عن عدم التزام إسرائيل بقرارات الهدنة التي فرضت على الجانبين كان له أثر واضح في نتيجة الحرب، أضف إلى ذلك التخبط السياسي في الدول العربية وعدم قدرتهم على اتخاذ قرارات صائبة فيما يخص قضية فلسطين .

انتهت الحرب بهزيمة الدول العربية، واحتلال اليهود لكل الأراضي الفلسطينية فيما عدا ثلاث مناطق وهي : الضفة الغربية

لنهر الأردن والتي بقيت بها القوات الأردنية، وقطاع غزة والذي كان تحت إدارة مصرية، والقدس التي قسمت بين العرب واليهود، وكانت الهزيمة في هذه الحرب هي إحدى الحلقات الكبيرة والمؤثرة في سلسلة الهزائم التي أدت إلى ضياع فلسطين، ولكن إلى حين

حرب العدوان الثلاثي ١٩٥٦ م :

العدوان الثلاثي على مصر هو عدوانا غاشما قامت به كل من إنجلترا وفرنسا والكيان الإسرائيلي في عام ١٩٥٦م على مصر، ويعتبر أوضح مثال لالتقاء أهداف الدول الاستعمارية ممثلة في إنجلترا وفرنسا، مع أهداف الصهيونية ممثلة في الكيان الإسرائيلي لتوجيه ضربة عسكرية تهدف إلى القضاء على قوة مصر التي تُعتبر القوة الوحيدة المهددة لهم في المنطقة حينها، وسعيًا للسيطرة على قناة السويس التي تعتبر أهم ممر ملاحى في العالم .

أما عن الأسباب المباشرة التي دفعت هذه القوى للتحالف معا ضد مصر فيمكن أن نلخصها في الأسباب الآتية : — أولاً : قرار تأميم شركة قناة السويس البحرية لتصبح شركة مساهمة مصرية والذي اتخذته الرئيس جمال عبد الناصر في يوليو ١٩٥٦م قد أضر بمصالح الدول الكبرى خاصة إنجلترا .

- ثانياً : كان لمصر دوراً كبيراً في مناصرة حركات التحرر في الجزائر الشقيق ضد الاستعمار الفرنسي هناك، ولم تكن مصر

على الجزائر بالمساعدات سواء كانت عسكرية أو سياسية، وأدركت فرنسا أن لا انتصار لها على الثورة في الجزائر إلا بعد القضاء على قوة مصر واشغالها بنفسها لتكف دعمها للثائرين الجزائريين .

- ثالثا : استطاعت الحكومة المصرية في عام ١٩٥٥م كسر احتكار السلاح العالمي الذي كان لصالح الدول الغربية من خلال صفقة أسلحة ليست بالهينة، عقدتها مع الاتحاد السوفيتي، وأدرك الكيان الإسرائيلي أن هذه الصفقة موجهة اليهم تحديدا، فعملوا على استنزافها ومنع مصر من استخدامها ضدهم، ولا ننسى أن الثقافة الصهيونية تؤمن بضرورة السعي لإقامة دولة لهم تمتد من النيل إلى الفرات، وكان هذا هو الدافع الأكبر للصهيونية التي سعت دائما وأبدا للقضاء على قوة مصر .

على أي حال، اجتمعت هذه العوامل جميعها وأدت إلى اتحاد هذه القوى الثلاث، كل منهم يسعى لتحقيق أهدافه من هذا العدوان، وكانت فكرتهم تتلخص في تدمير سلاح الجو المصري، ثم الهجوم بالقوات المحمولة برا وبحرا على شمال قناة السويس والتقدم للاستيلاء على قناة السويس كاملة واحتلال مدن القناة بورسعيد والإسماعيلية والسويس، وفي نفس التوقيت تجتاح القوات الإسرائيلية سيناء من الجهة الشمالية الشرقية، وبذلك يتم حصار القوات المصرية في سيناء .

كانت القوات الرئيسية المصرية تأخذ مواقع دفاعية ثابتة في عدة مناطق في سيناء، منها رفح والعريش وأبو عجيلة وشرم الشيخ وغيرها، ويوجد في غرب القناة فرقتين مشاة وفرقة مدرعة .

بالفعل تقدمت القوات الإسرائيلية إلى داخل سيناء، وبدأت المناوشات والمعارك التي تفوقت القوات المصرية في أكثرها، وهنا بدأ الجزء الثاني من المخطط الإنجليزي الفرنسي الإسرائيلي، حيث وجهت بريطانيا وفرنسا إنذارا لمصر وإسرائيل يحتوي على وقف الأعمال الحربية فورا وانسحاب القوات المصرية إلى غرب قناة السويس والقوات الإسرائيلية إلى عشرة أميال شرق القناة، وأن تقبل مصر الاحتلال المؤقت لبورسعيد والإسماعيلية والسويس من جانب القوات الانجليزية الفرنسية حتى يمكن الفصل بين القوات المتحاربة وحماية حرية الملاحة في القناة .

من الواضح التنسيق التام بين إسرائيل من جهة وبين إنجلترا وفرنسا من جهة ثانية لتبرير الإنزال الفرنسي الإنجليزي في القناة، وخاصة أن الإنذار طلب الرد خلال ١٢ ساعة فقط، وعلى أي حال فقد رفضت مصر هذا الإنذار تماما .

بدأ الطيران الفرنسي الإنجليزي المشترك في قصف القواعد الجوية المصرية بعد انتهاء المهلة التي أعطاهها الإنذار، ومع استمرار القصف الجوي، أصدرت القيادة المصرية أوامرها للجيش المصري في سيناء بالانسحاب إلى غرب القناة حتى لا يتم حصار القوات

المصرية بين اليهود شرقا والقوات الإنجليزية الفرنسية المتوقعة نزولها إلى منطقة القناة غرب القوات المصرية في سيناء .

نزلت القوات الإنجليزية والفرنسية إلى بورسعيد، وسعت إلى التقدم إلى الإسماعيلية، إلا أن المقاومة الشعبية في بورسعيد مدعومة برجال القوات المسلحة نجحت في صد القوات المعتدية ومنعت خروجها من بورسعيد في اتجاه مدينة الإسماعيلية .

كانت كل العوامل التي تؤدي إلى نجاح هذا العدوان متوفرة، إلا أن الجميع فوجئ بوقف العمليات الحربية في نوفمبر ١٩٥٦م وخروج القوات البريطانية والفرنسية من منطقة بورسعيد في ديسمبر ١٩٥٦م، وانسحاب القوات الإسرائيلية من شبه جزيرة سيناء في أوائل عام ١٩٥٧م، وقد تضافرت مجموعة من الأسباب التي أدت إلى فشل هذا العدوان منها موافقة مصر على قرار الأمم المتحدة الذي يقضي بوجود قوات طوارئ دولية على الحدود الفاصلة بين مصر والكيان الإسرائيلي وفي منطقة شرم الشيخ فأدى ذلك بدوره إلى تدخل الأمم المتحدة وتنديدها بالعدوان على مصر ومطالبتها للدول المعتدية بالانسحاب، بالإضافة إلى ضغط الولايات المتحدة على كل من إنجلترا وفرنسا حتى لاينفردا بقناة السويس، كما أن الاتحاد السوفيتي والذي كانت تجمعه مصالح كبيرة مع الدول العربية خاصة مصر حينئذ قد هدّد الدول المعتدية، ويبدو أن ثورة العمال المتعطلين عن العمل في إنجلترا وفرنسا ضد حكومتهما لعبت دورا في إرباك إنجلترا وفرنسا، ولا نغفل كذلك

المقاومة الباسلة لأهالي بورسعيد والفتديين من رجال الجيش ضد القوات الفرنسية الإنجليزية المشتركة .

انتهى العدوان الثلاثي بالفشل، إلا أن رغبة الكيان الإسرائيلي في القضاء على قوة مصر، وأمنيته في الاتساع ليشمل الأرض الممتدة من النيل إلى الفرات، والدعم الغربي من الدول الإمبريالية الاستعمارية له، ستدفع الكيان الإسرائيلي إلى خوض المزيد من المعارك من أجل تحقيق تلك الأهداف .

العدوان الإسرائيلي هيونيه ١٩٦٧م (النكسة):

مرة جديدة التقت أهداف الاستعمار مع أهداف الصهيونية في توجيه ضربة عسكرية للدول العربية وعلى رأسها مصر، أما أهداف الصهيونية فقد تحدثنا عنها في العدوان الثلاثي، بينما أهداف الاستعمار فقد تمثل هذه المرة في الولايات المتحدة الأمريكية التي رأت مساندة الكيان الإسرائيلي لتوجيه هذه الضربة لتحقيق عدة أغراض منها توجيه ضربة للشيوعية ممثلة في الاتحاد السوفيتي الذي تربطه مصالح مشتركة مع مصر ومعظم الدول العربية ومحاوله تطويقه من جهة الجنوب، بالإضافة إلى السيطرة على المنطقة العربية الغنية بالثروات وبصفة خاصة النفط وطرق نقله .

استطاعت إسرائيل استدراج مصر والدول العربية إلى حرب جديدة يبدو أن العرب لم يكونوا على استعداد لها، حيث قامت

اسرائيل بحشد قواتها العسكرية على الحدود بينها وبين سوريا فردت مصر على ذلك باعلان ووقوفها بجانب سوريا وأعلنت ان أي اعتداء على سوريا يعتبر اعتداء على مصر، وطلبت مصر من قوات الطوارئ الدولية الموجودة على الحدود بين مصر والكيان الإسرائيلي ومنطقة شرم الشيخ الانسحاب من بعض النقاط، كما أعلنت مصر اغلاق مدخل خليج العقبة تماما عند ما يعرف بمضيق تيران أمام السفن التي تحمل العلم الإسرائيلي وكذلك ناقلات البترول على اختلاف جنسيتها والمتجهة إلى ميناء ايلات بينما يسمح للسفن الخارجة من الخليج على اختلاف جنسياتها بالخروج .

بعد ظهر يوم ٥ يونيو ١٩٦٧م، قام سلاح الطيران الإسرائيلي بتوجيه ضربة جوية قوية لكل الطائرات والمطارات المصرية، ويبدو أن أجهزة التجسس الأمريكية والأقمار الصناعية قد لعبت دورا كبيرا في إمداد القوات الإسرائيلية بالاحداثيات بشكل تفصيلي، وعلى هذا فقد حققت الضربة الجوية الاسرائيلية نجاحا أكثر مما توقعه الإسرائيليون أنفسهم، فقد تم تدمير سلاح الجو المصري تماما وترتب على ذلك أن الجيش المصري في شبه جزيرة سيناء أصبح بدون غطاء جوي ففقدت مصر ما يقرب من ثمانون في المائة من قوتها العسكرية .

أصدر المشير عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة حينها أوامره للقوات المصرية كلها بالانسحاب إلى غرب القناة،

دون وجود خطة واضحة للانسحاب، فكانت مهزلة عسكرية على أراضي سيناء وأقل ما توصف به أنها كانت انتحارا وليس انسحابا، ورغم ذلك لم يخل هذا الانسحاب من البطولات التي قام بها رجال القوات المسلحة حينها وأخص منهم بالذكر والدي العزيز الذي كان يخدم حينها برتبة ملازم أول في مطار المليز شرق القناة .

على أي حال، تعددت أسباب الهزيمة، وقد اتفق مع رؤية اللواء عبد المنعم خليل والذي كان قائدا لقوات شرم الشيخ إبان عدوان ٥ يونيو ١٩٦٧م حينما لخص أسباب الهزيمة في مذكراته التي تحمل اسم «في أوراق قائد ميداني» والتي صدرت في عام ١٩٩٠م، حيث أرجع أسباب الهزيمة إلى:

- أولا : تغيير الخطة فجأة بضغط من القيادة السياسية

- ثانيا : ضعف القيادة والسيطرة

- ثالثا : توالي الإشارات اللاسلكية الخاطئة

- رابعا : تردد القيادة في مسألة إغلاق خليج العقبة

- خامسا : الاستخدام الخاطئ للقوات فقد هبطت معنويات القوات بدرجة كبيرة من تغيير المهام الكثيرة ومن الدفاع والتمسك بالأرض، وهي قوات هجومية كان أملها كبير في الاشتراك في الهجوم على العدو الإسرائيلي، ولقد نجحت إسرائيل في تحقيق عامل المفاجأة، وقامت بعمليات هجومية غير متوقعة

أحدثت صدمة للقيادة المصرية جعلتها تتخبط في اتخاذ القرارات الخاصة بالانسحاب من سيناء وحولته إلى فوضى .

- سادسا : عيوب القيادة المتمثلة في الإهمال وعدم التفرض للقتال وتخلف الفكر العسكري وسوء نظام التعبئة .

على أي حال، أدت هزيمة مصر والدول العربية من ورائها في عدوان عام ١٩٦٧م إلى استيلاء إسرائيل على شبه جزيرة سيناء بالكامل حتى وصلت بقواتها إلى الضفة الشرقية لقناة السويس، وتوغلت القوات الإسرائيلية في جبهتيها الشرقية والشمالية فاستطاعت الاستيلاء على هضبة الجولان السورية، ووصلت قواتها إلى الضفة الغربية لنهر الأردن، بالإضافة إلى تمكن اليهود من الاستيلاء على كل الأراضي الفلسطينية بما فيها القدس كاملة .

أما فيما يخص مصر، فقد بدأت في إعادة بناء قواتها المسلحة، بالتوازي مع محاولة الصمود والتصدي للاعتداءات الإسرائيلية لمنع العدو من الاستيلاء على مزيد من المواقع كما حدث في معركة رأس العش والصمود الأسطوري للقوات المصرية في بورفؤاد، والدخول في مناوشات بحرية ضد القوات الإسرائيلية ومنها تدمير المدمرة الإسرائيلية إيلات .

صدر قرار من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقمه ٢٤٢ في أواخر عام ١٩٦٧م، نص على انسحاب إسرائيل من أراض عربية

احتلتها عام ١٩٦٧م وإنهاء حالة الحرب بين العرب واسرائيل، واحترام السيادة الإقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة وحقها في العيش بسلام في حدود آمنة ومعترف بها، وحرية الملاحة في الممرات الدولية وتسوية مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، وإنشاء مناطق منزوعة السلاح، وأن يقوم السكرتير العام للأمم المتحدة بتعيين ممثل خاص لاجراء الاتصالات مع الدول المعنية للوصول إلى تسوية سلمية، وقد وافقت مصر على القرار إلا إن إسرائيل رفضته وعملت على إفشال جميع الجهود الدولية لتحقيق الانسحاب من الأراضي المحتلة .

بدأت مصر محاولة نقل المعركة إلى الأراضي التي استولت عليها العدو، من خلال ما عرف بحرب الاستنزاف والتي تعددت العمليات العسكرية فيها في شرق القناة، بالإضافة إلى القصف المدفعي المستمر للتحصينات الإسرائيلية التي أقيمت في شرق القناة والمتمثلة في الساتر الترابي ومن خلفه الخط الحصين المنيع المعروف باسم خط بارليف .

تكبدت القوات الإسرائيلية خسائر كبيرة لم تكن تنتظرها بعد هذه الفترة الوجيزة من انتصارها في ١٩٦٧م، فتدخلت الولايات المتحدة لإنقاذ إسرائيل من خلال تقديم مبادرة لوقف إطلاق النار والعمل على حل الصراع بشكل سلمي، وعرفت هذه المبادرة باسم مبادرة روجرز وزير الخارجية الأمريكي، وبالفعل توقفت العمليات الحربية من الطرفين، وبعدها بأسابيع قليلة نُويَّ جمال عبد

الناصر وتولّى المسئولية بعده نائبه محمد أنور السادات، ومن ثم، بدأت الجبهة المصرية في الإعداد اعتمادا على فكر جديد سينجح في تحقيق أهم انتصار لمصر والعرب في القرن العشرين، وهو انتصار أكتوبر المجيد .

حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣م:

حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣م التي عُرفت باسم حرب العاشر من رمضان، أو حرب تشرين وأطلق عليها اليهود حرب يوم كيبور أو يوم الغفران، تُعتبر واحدة من أهم الحروب التي خاضتها مصر في تاريخها، ورغم محاولات اليهود التشكيك في قيمة ما حققته مصر من انتصار عسكري في أكتوبر ١٩٧٣م، إلا أنه يظل في الحقيقة الانتصار الأعظم للجيش المصري منذ حطين وعين جالوت .

وقد كان لفشل كل الجهود السياسية للتوصل إلى حل سلمي عن طريق الأمم المتحدة بسبب تعنت إسرائيل وإصرارها على الاحتفاظ بجميع الأراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧م، سببا كافيا لاندلاع حرب أكتوبر، إلا أن القيادة السياسية والعسكرية في مصر هذه المرة قد استفادت من الأخطاء التي وقعت فيها سابقتها، وعملت على عدم خوض معركة جديدة ضد الكيان الاسرائيلي إلا بعد إتمام الاستعداد اللازم والكافي، وتهيئة الجبهتين الداخلية والعربية تهيئة تامة لخوض المعركة التي لا تتحمل إلا نتيجة

واحدة وهي الانتصار على الكيان الإسرائيلي، فكان السادات يسير على ثلاثة خطوط متوازية، الأول البناء العسكري للمعركة، والثاني الجهد السياسي في كل الميادين لخدمة المعركة، والثالث بناء الدولة الحديثة على العلم والإيمان .

وكانت الخطة تهدف إلى نقل الجزء الأكبر من القوات المصرية إلى الضفة الشرقية لقناة السويس الواقعة تحت الاحتلال الاسرائيلي منذ عام ١٩٦٧م، وقد عبّر الرئيس الراحل محمد أنور السادات عن ذلك بمقولته مخاطبا قادة القوات المسلحة المصرية في أحد الاجتماعات الرسمية عام ١٩٧١م « كل ما أريده منكم هو أن تعطوني عشرة سنتيمترات فقط في الضفة الشرقية لقناة السويس في سيناء، وأنا كفيل بعد هذا في حل الموضوع سلميا » على أي حال، بدأت المعركة في تمام الثانية ظهرا يوم السبت الموافق السادس من أكتوبر لعام ١٩٧٣م، بعد أن أعطى الرئيس السادات إشارة بدء الحرب، وقامت الحرب على الجبهتين المصرية والسورية بتنسيق تام في نفس التوقيت، وكانت القيادة العامة للقوات المصرية السورية المشتركة إبان الحرب للمشير أحمد اسماعيل، بينما كانت رئاسة أركان حرب القوات المسلحة المصرية للفريق سعد الدين الشاذلي وهو الذي وضع خطة عبور القناة والتي عُرفت باسم (المأذن العالية) .

كان أمام القوات المصرية مجموعة من العوائق والتي يستحيل معها نقل أي جندي مصري إلى شرق القناة، حيث كانت قناة السويس نفسها هي الحائل الأول أمام العبور، فكيف ستنتقل عشرات الألوف من الأفراد وألاف المعدات والآليات العسكرية عبر القناة دون أن يهاجمها العدو ؟، وإذا افترضنا النجاح في ذلك، فكيف ستخترق القوات المصرية الساتر الترابي العملاق الذي أقامه اليهود على الضفة الشرقية لقناة السويس ؟ وكيف ستتمكن من تدمير وإتمام السيطرة على خط بارليف المنيع الذي أقامه اليهود خلف الساتر الترابي والذي يتكون من مجموعة من النقاط القوية التي تم بناءها من الخرسانة والفولاذ ؟

إلا أن الايمان بالله والتخطيط الجيد وعزم الرجال كانت أقوى بكثير من أي عائق، ولك أن تتخيل عظمة هذا المشهد، ففي اللحظات الأولى للمعركة عبر سلاح الجو المصري ممثل في حوالي مائتي طائرة من طرازات مختلفة قناة السويس، كل منها تصيب الأهداف المطلوب منها اصابتها بدقة عالية، وحققت أعلى نسبة نجاح ممكنة لضربة مماثلة ونجحت في شل القيادة الإسرائيلية لمدة أربع ساعات تقريبا كانت كافية لعبور المشاة، وفي نفس التوقيت كان ما يقرب من عشرة آلاف مدفع يفتح النيران الكثيفة على تحصينات العدو شرق القناة مما أعطى تمهيدا نيرانيا مثاليا لطليلة القوات البرية لعبور القناة بواسطة القوارب المطاطية، وقيام سلاح المهندسين بإقامة المعابر على طول

القناة لعبور الدبابات والمدرعات إلى الضفة الشرقية وفتح ثغرات في الساتر الترابي بواسطة مضخات المياه حتى تتمكن هذه الآليات من الدخول إلى قلب سيناء، وما هي إلا ست ساعات فقط إلا وكانت معظم نقاط خط بارليف تحت سيطرة القوات المصرية يرفرف عليها علم مصر خفاقا .

بدأت الدبابات الإسرائيلية تتحرك باتجاه قناة السويس في اتجاه حصون خط بارليف في محاولة لنجدها إلا أن مئات الصواريخ المضادة للدبابات كانت في انتظارهم، فلم تتمكن أي من هذه الدبابات من الوصول إلى الحصون .

استطاعت القوات المصرية احتلال كل حصون خط بارليف في الساعات الأولى للحرب ماعدا حصنا واحدا هو الحصن الموجود شرق بورفؤاد الذي تأخر استسلامه، وأشرف بأن والدي كان من المجموعة المحاصرة لهذا الحصن .

في يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٣م قررت القيادة السياسية في مصر دفع القوات المدرعة المصرية للعبور شرقا والتقدم إلى المضائق في قلب سيناء، وذلك بغرض تخفيف الضغط الإسرائيلي على الجبهة السورية، وبدأت بعض التحركات الاسرائيلية تنذر بانهم يفكرون في عبور القناة إلى ضفتها الغربية لاعادة الحرب بعد ان خسروها في شرق القناة، وانتهز الإسرائيليون الفرصة، بعد أن أصبح الغرب المصري في قطاع البحيرات المرة وكل المنطقة جنوب الإسماعيلية

وغرب قناة السويس خاليا من القوات المقاتلة المصرية، اللهم إلا من بعض كتائب الصواريخ المضادة للطائرات وكتائب مدفعية الميدان ووحدات إدارية ومؤخرات الوحدات التي عبرت شرقا، كما اتسعت الفجوة بين الجيشين الثاني والثالث غرب قناة السويس، فقررت القيادة سرعة تنفيذ خطة الاختراق في هذا القطاع الخالي في منطقة الدفرسوار، وهو ما يعرف بالثغرة .

يبدو أن القيادة العسكرية المصرية كان لديها أكثر من خطة لتصفية تلك الثغرة، إلا أن قبول قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار قد حال دون تنفيذها، والسؤال هنا، لماذا وافق السادات على وقف إطلاق النيران ؟

الإجابة نأخذها من الرئيس السادات نفسه، حينما وُجه إليه هذا السؤال، كانت اجابته كالتالي :

« لم يطلب مني أحد ذلك، ولكنني أردت ألا أعطي إسرائيل فرصة استخدام الأسلحة الأمريكية الحديثة التي وصلتهم، كما أنني وجدت روح ١٩٦٧م قد بدأت في بعض القادة، وكنت أحب ألا يحدث هذا .. والعامل الثالث أن القائد العام لم يكن لديه احتياطي يستخدمه وهذا خطير .. وقبولي وقف إطلاق النيران هذه المرة يختلف عما حدث عام ١٩٦٧م فقواتنا عشر فرق شرق وغرب وإن شاء الله سنستعوض الدبابات، وبعد كسر حائط الخوف والجيش الذي لا يقهر وبهذه الروح العالية أمكننا أن نحقق الكثير

ويجب أن تتحركوا، خذوا أرضاً، تحركوا، وبعد فصل القوات ندخل مؤتمر السلام، ومفروض أن تظل القضية حية فقرار أكتوبر ومانفدته القوات المسلحة كان روعة ونفذ ضد إرادة الكبار روسيا وأمريكا وكانوا يقولون لي اوعى تحارب»

على أي حال، توقف القتال تماماً يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣م، وبدأت مرحلة جديدة تصدرت فيها المفاوضات السياسية لحل الصراع العربي الإسرائيلي تمثلت في مجموعة من قرارات الأمم المتحدة مصحوبة بمعاهدات واتفاقيات ومؤتمرات، إلا أن المشكلة الأساسية التي تؤرق أذهان كل عربي وهي مشكلة فلسطين مازالت تبحث لها عن حل.

تم بحمد الله وفضله

الفهرس

٥.....مُقَدِّمة.....

٩.....تمهيد.....

١٣.....المعارك الفاصلة في العصور القديمة.....

١٣.....حرب التحرير ١٥٧١ ق.م.....

١٨.....معركة مجدو ١٤٧٩ ق.م.....

٢٠.....معركة قاش ١٢٧٤ ق.م.....

٢٢.....شعوب البحر المتوسط ١١٧٨ ق.م.....

٢٤.....طرد الأشوريين ٦٢٠ ق.م.....

٢٧.....معركة رفح ٢١٧ ق.م.....

٢٩.....أكتيوم البحرية ٣١ ق.م.....

٣٢.....المعارك الفاصلة في العصور الوسطى.....

٣٢.....الفتح الاسلامي ٦٤١ م.....

٣٦.....ذات الصواري ٦٥٤ م.....

٣٩.....حطين ١١٨٧ م.....

٤٢.....المنصورة ١٢٤٩ م.....

٤٦.....عين جالوت ١٢٦٠ م.....

المعارك الفاصلة في العصر الحديث والمعاصر..... ٥٢

- ٥٢..... ديو البحرية ١٥٠٩ م.....
- ٥٤..... مرج دابق ١٥١٦م - الريدانية ١٥١٧ م.....
- ٥٩..... شبراخت ١٧٩٨م - امبابة ١٧٩٨م.....
- ٦١..... حروب محمد علي ١٨٠٥ م : ١٨٤٨م.....
- ٦٢..... حملة فريزر ١٨٠٧م.....
- ٦٤..... الحروب الوهابية (الجزيرة العربية) ١٨١١م : ١٨١٩م.....
- ٦٥..... حروب السودان ١٨٢٠ م : ١٨٢٢م.....
- ٦٦..... حروب اليونان (المورة) ١٨٢١م : ١٨٢٨م.....
- ٦٧..... حروب الشام ١٨٣١م : ١٨٤٠م.....
- ٧٠..... حرب الحبشة ١٨٧٥م.....
- ٧١..... الاحتلال الانجليزي عام ١٨٨٢م.....
- ٧٣..... معركة كفر الدوار يوليو ١٨٨٢.....
- ٧٦..... معركة التل الكبير ١٨٨٢م.....
- ٨٠..... الحرب العالمية الأولى وآثارها على مصر ١٩١٤م : ١٩١٨م.....
- ٨٢..... الحرب العالمية الثانية وآثارها على مصر ١٩٣٩م : ١٩٤٥م.....
- ٨٤..... حرب فلسطين ١٩٤٨م.....
- ٨٨..... حرب العدوان الثلاثي ١٩٥٦م.....
- ٩٢..... العدوان الاسرائيلي ٥ يونيه ١٩٦٧م (النكسة).....
- ٩٧..... حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣م.....